حراء

مجلة علمية ثقافية أدبية

www.hiragate.com

دورية تصدر كل شهرين

السنة الثامنة عشرة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠٢٢

92

Hira Magazine | Knowledge - Cultural - Literary |September - October 2022

اقرأ

مجتمعٌ بالجَهْلِ مُدَانْ فيه النـاسُ كالعُـمْـيَانْ
هو مجتمعُ خَـريفٍ ضَـارٍ مَحْـرومٌ نُـورَ الـعِـرْفانْ
فَإذا لَمْ يَنْتَبِهوا حَـتْمًا يُقْضَى فِيهمْ بالخُسْرانْ
فَاقْرأْ أدرِكْ ذاتَـكَ حتـى تُشْـرقَ فـي كُلِّ الأكْـوانْ

٢ الأرض
فتح الله كولن

١٣ هل السرطان يعني الموت المحتوم؟
د. محمد السقا عيد

٢٤ البيروني وهندسة الكون
محمد زغلول عامر

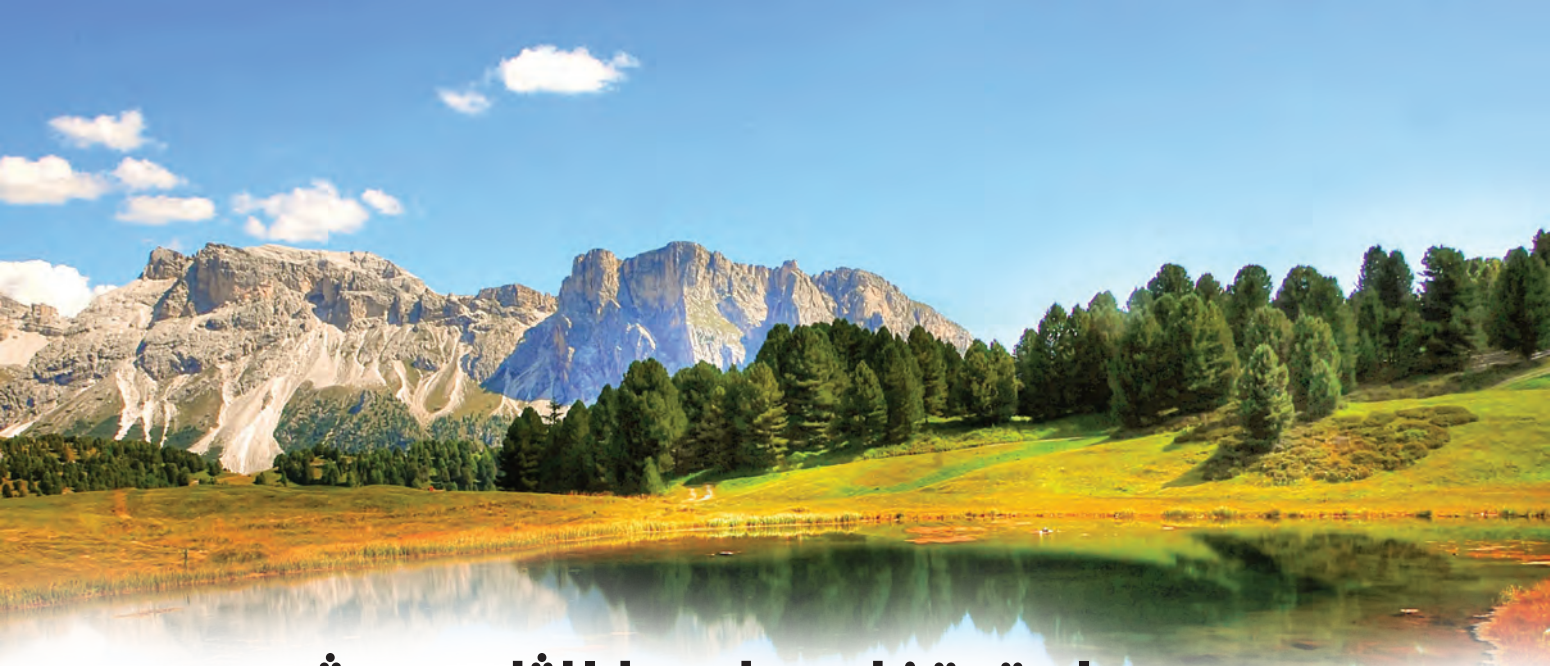

حراء تحتفل بعامها الثامن عشر

تستهل مجلة حراء بهذا العدد عامها الثامن عشر. فهنيئًا لنا أسرة حراء كتّابًا وقراء وقائمين عليها، هذا العام الجديد. إن من عرف مجال الفكر والنشر في عالمنا الإسلامي، وخبر تقلباته، وعايش تحدياته عن كثب، يدرك مدى صعوبة الثبات والاستمرار في هذا المجال. فقد يكون قدح الشرارة الأولى سهلاً، وقد تنتشي طربًا وتمتلئ فخرًا عندما تجد نفسك تصدر عددًا بعد آخر وتنتقل من عام إلى عام آخر، لكنك لن تفتأ أن تشعر بالشيخوخة بعد حين. هكذا نحن، وهكذا مشاريعنا كمسلمين، تنطلق بحماس متقد يحسبه الناظر لا يخمد أبدًا، لكنك تصدم بعد أمد قريب بآثار التعب والهرم وقد دبّت في أوصال الجسم مبكرًا تأكله ببطء وتؤدة، فإذا به يترنح ثم يهوي في وديان الفناء.

والصدقَ نقول، لم تكن رحلة حراء حتى هذا العدد سهلة. فقد عصفت عواصف عديدة من حولها كادت تسقطها، لكنها ثبتت. وقد تقاذفتها أمواج هائلة كالجبال كادت تغرقها، لكنها عرفت كيف تتجاوزها. إنه الإيمان بالرسالة ظل يشع في أحشائها، والأمل الذي ظل يشحذ عزيمتها. إنه الإيمان بالنفَس الطويل، لأن الرحلات الطويلة لا تكتمل إلا لأصحاب الأنفاس الطويلة. والنفس الطويل لا يمتلكه إلا الحكماء. إنهم كتّاب حراء الذين لم يفتؤوا يمدونها برحيق أرواحهم وبريق أفكارهم. إنهم قراء حراء الذين ظلوا أوفياء لها، ملحين على السؤال عنها كلما تأخرت، معبرين عن قلقهم كلما أبطأت، مشجعين لها على المثابرة كلما لمسوا فيها شيئًا من ضعف. إنهم فريق حراء الأبرار، ثلة من الأبطال ثبتوا على "تلة الرماة" لم يفارقوها، لأنهم أدركوا حق الإدراك أن الراية ساقطة لا محالة إن تركوا ربوة النور تلك. إنهم حفنة من المحررين والمصممين والموزعين الأوفياء. فالشكر لله أن سخر لـ"حراء" هذه الكوكبة من رجال الوفاء، طوبى لها بهذه الرفقة الطيبة، وبشرى لها بمستقبل أكثر نضارة وإشراقًا.

لقد تعلمت حراء خلال تلك السنين المنصرمة حكمة الحياة، خبرت تقلبات الدهر، أدركت مواطن الخطر وكوامن المهالك، وعرفت كيف تجد الطريق مهما ادلهمّت الآفاق واختلطت السبل. باختصار عرفت كيف تمد من عمرها، تبقى فتية، وتمخر عباب الزمان إلى مستقبل ينبض بالحياة والعطاء.

هذا، وتتحفنا مجلة حراء -كما عودتنا- في هذا العدد، بمائدة فكرية شهية شارك في تشكيلها كوكبة فريدة من العلماء والمفكرين والأدباء من شتى البلدان العربية والإسلامية. وهي وجبة دسمة، لا شك في ذلك، تحتاج إلى تأنّ وروية في القراءة لهضم معانيها بعمق، والإفادة منها بحق، بدءًا من المقال الرئيس للعالم والمفكر الألمعي "فتح الله كولن"، إلى المقالات الأخرى في العلوم والفكر والتربية والأدب والثقافة. إنها وجبة فيها ما تَسعَد به العقول وتَطرَب له القلوب.

هذا، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل. ■

المحتويات

الأرض / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
قِصَر القامة سبب لأمراض القلب / أ.د. نبيل سليم (علوم)	٦
العبقرية هل هي حالة مرضية؟ / د. هدى الميموني (قضايا فكرية)	٩
هل السرطان يعني الموت المحتوم؟ / د. محمد السقا عيد (علوم)	١٣
العلاج بالعاثيات بين الإيجابيات والسلبيات / محمد المندعي (علوم)	١٧
الترجمة وجدلية التواصل بين الأنا والآخر / د. عماد عبد الرازق (قضايا فكرية)	٢١
البيروني وهندسة الكون / محمد زغلول عامر (تاريخ وحضارة)	٢٤
الحشرات في خدمة البشر / محمد زين العابدين (علوم)	٢٨
الصبر الفعَّال / فتح الله كولن (قطوف)	٣٢
القلب محلل الإيمان والتفكير / أ.د. إبراهيم عبد الباقي أبو عيانة (قضايا فكرية)	٣٤
اللغة العربية العلمية وصل ما سبق / د. ناصر احمد سنه (قضايا فكرية)	٣٨
إنتاج النشا من ثاني أكسيد الكربون / محمود بكر أبو خميس (علوم)	٤٢
حروفيات مشرقة بأنامل مبدعة / لحسن ملواني (ثقافة وفن)	٤٦
بين أزمة الهوية وضرورة الأمن اللغوي / حورية بلقاسمي (قضايا فكرية)	٤٩
أثر فقه المقاصد الدعوية في تجديد الخطاب الديني المعاصر / أ.د. محمد عباس المغني (قضايا فكرية)	٥٢
التربية بالكيف لا بالكَمّ / سليمان أحمد شيخ سليمان (تربية)	٥٦
بين الدنيا والآخرة / باولو برانكا (قضايا فكرية)	٦٠
أهلا يا مَلَكْ / محمود حسونة (شعر)	٦٣

الأرض

١

الأرض من حيث سطحها الخارجي وبنظرة سطحية؛ تذخر بأسرار شتى بفضل تلامس الغلاف الجوي مع القشرة الأرضية، وتشكل بدفئها وسطًا مناسبًا لإيواء النباتات والحيوانات واستمرار حياتها، وتتميز بثرائها الذي يحتضن في المليجرام الواحد منها مليارات الأحياء، وبسخائها الذي يستضيف أطنانًا من البكتريا في جزء منها محيطه واحد هكتار وعمقه عشرة سنتيمترات، كما أنها معرض عظيم ومرآة تعكس كثيرًا من التجليات الإلهية بعمل الحشرات والديدان الدقيقة على معالجة التربة وتفتيتها وتقديمها للبكتيريا، لتتمكن من

أداء وظائفها الفطرية بشكل طبيعي. فهي بمثابة معمل كيميائي محاط بالأسرار، ومختبر بيولوجي حيوي مذهل ومعقد، لدرجة أن قيمتها تعادل السماوات من حيث الوظائف والمهام التي تؤديها.

الأرض مصدر حياة شديد الدفء والوفاء والرحمة؛ فمن يعجزون عن رؤية مهمة خضوعها تحت تصرفنا بوفائها الشديد هذا، يتوهمون بأن فيها مجموعة من القوى السحرية والأسرار الغامضة.

ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الأرض هي العنصر الأكثر قيمة، والمادة الأكثر أهمية لجميع المخلوقات وخاصة للكرة الأرضية. فالهواء والماء والضياء قائم بها، وموجود من أجلها. ونظرًا لأهميتها هذه، فقد نشأنا نحن وملايين الموجودات المتعلقة بنا ونمونُا في قلبها. وقد تعرض القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه لهذا العنصر المتواضع في ذاته البالغ السماوات في قدره. أجل، إنها تعادل السماوات في قدرها.. وجديرة بالاحترام لكونها مبدأ خلقنا.. وتُعرض على أنظارنا دائمًا وكأنها جسر أو مرفأ أو منحدر يوصل للعقبى.. ويُشار بها إلى العلم والحكمة والعناية المتمثلة فيها.. يقول تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۞ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾(النازعات:٣٠-٣٢). وهناك عديد من الآيات القرآنية التي نزلت في هذا الشأن والتي تبيّن العلاقة بين الأرض والغلاف الجوي، والترتيب البديع بين طبقات الأرض، والذي يجعلها تحافظ على المياه بداخلها، ثم تتفجر تلك المياه خارجها بتوازن ونظام معينين، فتتشكل الأنهار من خلال ذلك، وتروى الحدائق والبساتين، ثم تتبخر هذه المياه على نطاق واسع، وتصبح تحت التصرف مرة أخرى.

وتُعتبر الأرض بما تحظى به من أهميةٍ خاصةٍ من حيث محتواها وثراؤها، واحتفاؤها بالحياة، ولا سيما اكتسابها قيمة أعلى من قيمتها الحقيقية بحياة البشرية عليها.. تعتبر واحدة من أهم الحوادث المتعلقة بالكرة الأرضية بل وحتى بالكون كله. ومع أن هذه الخصائص وهذا النظام الحكيم والتوازن الدقيق الذي تحتويه هذه الخصائص ليست مفهومة تمامًا اليوم، فإن الله تعالى يؤكد دائمًا في تصريحاته الأزلية على هذه الخصائص بأبعادها المختلفة، ليذَكّر بألطافه الواسعة الجمّة علينا وعلى الكائنات الحية الأخرى؛ فيفتح لنا في عوالم فكرنا منافذ تطل على الوجود وعلى ما وراء حجاب الوجود، ويجعلنا نطوف في المناخ الفسيح الرحب للإيمان والطمأنينة. يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الرعد:٣).

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تعبر عن خصائص الأرض بأساليب مختلفة. تشير كل هذه الآيات تقريبًا إلى أن الأرض تمر بتغير وتحول مستمرين حتى يصبح العالم مناسبًا لحياة الإنسان. فقد توَّج صاحب القدرة المطلقة واللامتناهية كل مرحلة من مراحل هذه العملية الطويلة من التغيير والتحول، بأنواع من المخلوقات الحية المختلفة عن بعضها البعض أحيانًا، والمتماثلة في أحيان أخرى؛ لقد جعل البحار والأنهار عوالم للحياة بأبعاد تجلٍّ مختلفة لصفات العلم والإرادة والحياة، ولا سيما طبقة الأرض فقد جعلها الخالق تعالى محشرًا ومنشرًا للكائنات الحية من فوقها ومن أسفل منها.

والأرض من حيث الحياة، تتمتع بمحتوى وبنية داخلية ساحرة، فكما ينظر البعض إليها دائمًا على أنها كائن حي متكامل بنفائسها الظاهرة والباطنة هذه، يمكن القول أيضًا إنها بمثابة معمل كيميائي أو مركز أبحاث فيزيائي أو مختبر بيولوجي حيوي.. أجل، الأرض هي نقطة الاتصال بين الهواء والماء والضياء، وهي المنظم ومحطة الطاقة لنقل هذه العناصر إلينا بشكل نافع ومفيد. فهي بإيجاز، مصنع تهيئة وتطهير يحوّل كل شيء إلى عناصر مفيدة ونافعة بالنسبة لنا. ومن هذا المنطلق، يمكننا النظر إليها على أنها النقطة المركزية لكل شيء ولبّه وجوهره، وأهم عنصر في الحياة. فقد وصلت الغازات والنيران، التي تعتبر من العناصر الأساسية للكرة الأرضية، إلى مرحلة تكاملها ومعراجها بأن تحولت إلى تراب. كذلك الإنسان فقد بدأ مساره من تراب، وانتهى في التراب، حتى وصل لحالة تفوق التراب وصار سماويًّا.

وتذكرنا الأرض دائمًا، بسهولها ووديانها المتباينة الألوان، ومروجها وبساتينها المزدهرة، وجبالها وتلالها ذات المنظر الرهيب، وبحارها وأنهارها التي تبعث الخشية في القلوب.. تذكرنا بالجنات التي فقدناها، كما أنها كانت مصدرًا مهمًّا لمواساتنا في كل وقت. إننا نتذكر دائمًا في صفحة وجهها الجنة التي فقدناها، ونسلّي أنفسنا بالتفكير في بساتين ومروج الآخرة التي استدعاها جمالها الأخّاذ.

لقد مرت ملايين السنين على الكرة الأرضية حتى تصل الأرض إلى المستوى الحالي -لأن كل شيء في الكون يعمل وفق دائرة الأسباب- بيدِ صاحب القدرة المطلقة واللامتناهية. وقد استغرق الأمر أيضًا ملايين السنين حتى تُفرش بالنباتات، وتحتفي بالكائنات الحية، وتصبح مخلوقًا يسمعه البشر ويشعر به ويعيش به ويشاركه كل شيء.

والآن، في الوقت الذي وصلت فيه تمامًا للقوام الذي سيعكس بريق الجنات، هل يدرك أولئك الذين يُخِلُّون بتوازنها، ويدمرون وجودًا يتعدى ملايين السنين، ويخربون كثيرًا من تناغمها والعناصر المنسجمة فيها، أنهم يخربون نتاج مرحلة تجلٍّ استغرقت مليارات السنوات على حد علمي؟ ليت الأمر كان متعلقًا بتدمير بعض الأنواع وتخريب بعض التوازنات فحسب. ولكن للأسف، تجاوز الخراب حد الخيال، فتدمير بعض العناصر الضرورية على الأرض، تسبب بخلل في التوازن الموجود بين الكائنات الحية وغير الحية الأخرى.. وتعرضت الأرض الأم للخيانة مرة أخرى من فلذات أكبادها.

أجل، إن إفساد التوازن العام للأرض بالقضاء على بعض المخلوقات الحية وغير الحية -قصدًا كان أو لضرورة اقتصادية أو نتيجة الجهل- ليس سوى خيانة صريحة للكرة الأرضية ولطبقة الأرض التي نشأنا وترعرعنا عليها، وليس سوى تحويل عالمنا والمأوى الخاص بنا إلى مكان غير قابل للعيش. فعاجلاً أم آجلاً، سوف تَرُدُّ الشريعة الفطرية على خيانتنا هذه، وسوف تعاقبنا حتمًا على ظلمنا وبغينا هذا، سوف تعاقبنا وتُدْبر عنا، وسوف ينال الجميع وكل شيء -حيًّا كان أو غير حي- نصيبه من هذا الاستياء؛ سوف يستسلم الغلاف الجوي للغازات الضارة.. وسوف تنهمر السماء بالأمطار الحمضية بدلًا من أمطار الرحمة، حتى لو هطل المطر، فستتحجر الأرض أمامه ويجري إلى البحار.. وسوف تتناثر النباتات يمنة ويسرة وكأن الخريف قد أتى عليها.. ومع أن الأرض أكثر شفقة من الأم على وليدها، إلا أنها فرَّقت أبناءها هنا وهناك وكأنها فزعت بصور إسرافيل، وأطلقت لنفسها العنان لتصحّرٍ جهنميٍّ.

والأرض باعتبار طبيعتها؛ تتعانق دائمًا مع الهواء، وتتمازج بالماء، فتحنو علينا بمقتضى وظيفتها دائمًا كالأم بسهولها ووديانها، وبساتينها ومروجها، وبأنهارها الفضية ومراعيها الذهبية، وتقاوم أخطاءنا بشدَّة كالأب، وتستطيع أن تحيي دائمًا في قلوبنا فكرة الجنة التي فقدناها في فترة ما.. فهي مصدر حياة شديد الدفء والوفاء والرحمة؛ فمن يعجزون عن رؤية مهمة خضوعها تحت تصرفنا بوفائها الشديد هذا، يتوهمون بأن فيها مجموعة من القوى السحرية والأسرار الغامضة، تماما مثلما يقدس شعوب الغانج نهر الغانج، ومثلما يمجِّد شعب الأمازون نهر الأمازون، ومثلما يصف أيضًا بعض مواطني كندا نهر نياجارا بصفات إلهية، فهم أيضًا قد نظروا إليها على أنها قوة إبداعية خارقة.

والحقيقة أن الكرة الأرضية وطبقة الأرض هي مرآة للتجليات الإلهية، والمعجزات التي نشاهدها فيها هي واردات إلهية تنعكس وتتجسم في هذه المرآة. ومن الممكن تلخيص هذه المسألة المهمة بمنظور الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي على النحو الآتي: الكرة الأرضية هي قلب العالم، وعنصر الأرض (التربة) هو قلب الكرة الأرضية. والأرض هي رمز للجسور التي توصل الإنسان إلى أسمى الغايات مثل التواضع والانمحاء. حتى إن الأرض هي الطريق الأقصر من أعلى السماوات إلى خالق تلك السماوات؛ لأن الأرض هي الموضع الأكثر ملاءمة ومناسبة لتجلي وحدة الحق ﷻ في الكون، ولظهور الإجراءات المذهلة لأصحاب القوة المطلقة واللانهائية، ولتجلي اسم الحي القيوم (أي الذي يمنح الحياة، والقيّم عليها). وكما أن عرش رحمة الله ﷻ على الماء، فإن عرش الحياة والإحياء على الأرض.. فالأرض هي المرآة الأكثر سطوعًا وشفافية لجميع التجليات الإلهية.

أجل، كلما كانت مرآة الشيء الكثيف (غير الشفاف) أكثر دقة، كانت الصورة أكثر وضوحًا. كذلك كلما كانت مرآة الشيء اللطيف والنوراني كثيفة ودقيقة، عكست تجليات الأسماء الإلهية بنفس القدر.. على سبيل المثال، في الهواء، لا يظهر سوى انعكاس خافت للشمس، أما في صفحة الماء فإنها تعكسه بدرجة أكثر وضوحًا.. أما بالنسبة للأرض، فيشاهد بالضياء ألوان الشمس السبعة فيها.

ومع هذا المحتوى الواسع وثراء الأرض، فإنها كانت دائمًا تجسيدًا للتواضع والانمحاء، ودائمًا ما حركت شفتيها عند أقدامنا. إنها تُقبِّل دائما جباه أولئك الذين يشعرون بتواضعها وانمحائها في أرواحهم، عندما يجمعون رؤوسهم وأقدامهم معًا في نفس النقطة على الأرض، وتُشعِر أرواحهم بأسرار القرب من الحق تعالى.. تُشعرهم بذلك، وتهمس لمن يريدون تحويل قلوبهم إلى روضة ورود، بأن كونوا أرضًا حتى تُنبت الورد؛ لأنه لا يجدر بشيء آخر غير الأرض أن ينبت الورد.

على أمل أن يأتي عبق نسيم جديد يعانق أرواحنا، ويتدفق في الشجر والإنسان والتراب والماء والأرض والسماء، ويملأ قلوبنا، لنحيا به من جديد. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة "سيزنتي" التركية، العدد:٢٠٩ (يونيو ١٩٩٦)، تحت عنوان "Toprak". الترجمة عن التركية: خالد جمال عبد الناصر زغلول.

أ.د. نبيل سليم*

قِصَر القامة
سَبب لأمراض القلب

توصلت دراسة أجريت في "كنجز كوليج"[1] إلى العثور على طريقة تسمى الأكسدة. لقد كان الرأي السائد حتى الآن أن الأكسدة شيءٌ ضارّ وليس مفيدًا، لكن الدراسة الجديدة أثبتت أنها تلعب أيضًا دورًا حاسمًا في تنظيم الوظائف الطبيعية للخلايا، كما قال علماء بريطانيون إنهم توصلوا إلى طريقة جديدة لتنظيم ضغط الدم، مانِحين الأمل في التوصل إلى أدوية جديدة لعلاج النوبات القلبية.

يعاني واحد من كل أربعة أشخاص في العالم من ارتفاع ضغط

الدم، ورغم توفر العديد من الأدوية القوية للتعامل مع هذه الحالة، إلا أنها لم توفر للكثيرين الوصول إلى معدلات ضغط دم طبيعية. ويعتبر بروتين G Esanik أو GKP من البروتينات المهمة التي تدخل في بناء كل أنسجة الجسم، ويلعب دورًا جوهريًّا في الدورة الدموية بوجه خاص، حيث يقوم بتنظيم ضغط الدم، وتلعب مادة أوكسيد النيتريك التي تنتج داخل الأوعية الدموية، دورًا حاسمًا في هذه العملية.

لقد عثر "جوزيف بيرجوين" وزملاؤه في "كنجز كوليج" على طريقة جديدة يمكن من خلالها أن يعمل البروتين GKP بشكل مستقلٍ عن أوكسيد النيتريك، فقد اكتشفوا أن المواد المؤكسدة مثل بيروكسيد الهيدروجين تنتج رابطة بين حمضين من الأحماض الأمينية، يقومان بدورهما بتنشيط بروتين الـ GKP، ويؤدي هذا إلى خفض ضغط الدم. ويقول الدكتور "فيليب إبتون" من فريق الأبحاث: "إن هذا البحث قد يؤدي إلى إنتاج أدوية تساعد على التحكم في ضغط الدم".

يعتزم الباحثون حاليًّا اكتشاف ما يمكن أن تلعبه هذه الطريقة الجديدة في التغلب على الأعراض التي تسبق الإصابة بالنوبات القلبية، ويقول البروفيسور "جيريمي بيرسون" مدير مؤسسة أبحاث أمراض القلب في بريطانيا: "هذا بحثٌ مثير إذ أولاً: تتيح الطريقة الجديدة التي توصل إليها العلماء، المجال لإنتاج أدوية جديدة لمقاومة مرض ارتفاع ضغط الدم، وثانيًا: أن ضغط الأكسدة لا يغيّر فقط من قوة تدفق الدم، بل يؤثر أيضًا في قدرة القلب على الانقباض، ويتدخل في الكثير من حالات الالتهابات".

الكرش مرتبط بأمراض القلب

من ناحية ثانية تبين أن الكرش مرتبطٌ بأمراض القلب. فقد حذر علماء من جامعة "تكساس" من أن حجم البطن إذا ازداد -ولو بقليل- فقد يصعد من خطر تعرض صاحبه لأمراض القلب، ووجد الفريق الطبي أن مقاييس البطن مرتبطة بأعراض مرض القلب المبكرة، وهو ما يؤكّد نتائج أبحاث سابقة، جاء فيها أن مقاييس الخصر أهم من الوزن الإجمالي فيما يتعلق بأمراض القلب.

طول القامة أو قصرها ليس له تأثير بالنسبة للنساء. فقد أكدت أحدث الدراسات الطبية التي أجريت في جزيرة رودس وفي ألمانيا، أنه كلما ازداد الرجل قصرًا كلما ازدادت مخاطر أمراض القلب وارتفاع ضغط الدم.

وتقول الدراسة التي أجريت على ٢٧٤٤ شخصًا، إن محيط الخصر عندما يبلغ ٨١ سنتيمترًا عند الإناث و٩٤ سنتيمترًا عند الذكور "يشكل خطرًا" على صاحبه. فقد درس الباحثون نتائج تحليلات وصور إشعاعية للمشاركين؛ لمقارنة مدى تعرضهم لتصلّب الشرايين وضيقها، وكلها حالات تؤدي إلى أمراض القلب.

يؤكد العلماء أن زيادة محيط الخصر ببعض السنتيمترات فقط كفيلٌ بالتسبّب في أمراض القلب، حتى لو كان وزن الجسم عاديًّا بشكل عام، فقد ظهرت لدى أصحاب محيطات الخصر الكبيرة ترسّبات كلسية في شرايين القلب، وهي من أولى العلامات على تصلب الشرايين. يقول البروفيسور "جيمس دي ليموس" الذي قاد الفريق الطبي في الدراسة: "إن الدهون التي تخزن في الخصر أكثر نشاطًا من غيرها؛ حيث تفرز موادّ تساهم في تكلّس الشرايين، بينما يبدو أن دهون الأرداف لا تتسبّب في أيّ شيء مماثلٍ على الإطلاق، وأضاف "دي ليموس": "أظن أن المغزى من هذه الدراسة هو عدم اختزان دهنيات زائدة في محيط الخصر منذ البداية، لأن أية زيادة صغيرة في حجم البطن تشكل خطرًا على صاحبها".

من جهتها يقول الدكتور "جون ديفدسون" من المعهد البريطاني لأمراض القلب: "إن السمنة تزيد من خطر الإصابة بأمراض القلب، لكن السمنة المركزة في محيط الخصر أشد خطرًا. إذن فمن المهم أن يهتم الناس بشكل أجسامهم فضلاً عن وزنها، وذلك بتناول كميات أقل من الطعام وممارسة أنشطة بدنية أكثر".

قِصَر القامة وأمراض القلب

من جهة ثالثة أعلنت دراسات طبية حديثة عن مفاجأة مهمة وطرحت سؤالاً مهمًّا يقول: هل يكون قصر القامة

hiragate.com

سببًا للإصابة بأمراض القلب؟ الأطباء يقولون: نعم في حالة الرجال، لكن طول القامة أو قصرها ليس له تأثير بالنسبة للنساء. فقد أكدت أحدث الدراسات الطبية التي أجريت في جزيرة "رودس" وفي ألمانيا أنه كلما ازداد الرجل قصرًا ازدادت مخاطر أمراض القلب وارتفاع ضغط الدم.

بالطبع هذا لا يعني أن القصر يؤدي حتمًا لأمراض القلب، لكن وجد في المجتمعات قصيرة القامة معدل الإصابة أكبر، ومن ثم عليهم اتخاذ احتياطات أكبر لتقليل معدل الإصابة بأمراض القلب، يقول الدكتور "دونا باركر" من مستشفى جزيرة "رودس" التذكاري: "على الناس قصار القامة أن يراعوا ويأخذوا في اعتبارهم عوامل أخرى تعرضهم لمخاطر المرض، مثل الوزن وضغط الدم، لأنهم لن يستطيعوا عمل أي شيء حيال قصرهم".

أجريت الدراسة في جزيرة "رودس" على عيّنة شملت ستة آلاف وخمسمائة وتسعة وثمانون شخصًا (٦٥٨٩) من سكان الجزيرة لمن طولهم ما بين خمسة إلى سبعة أقدام، وأيضًا من خمسة إلى ثمانية أقدام، ووجد أن الذين هم أقل من خمسة أقدام هناك خمسة أشخاص منهم لديهم خطر التعرض لأمراض القلب، وذلك بنسبة ضعف معدل الخطر الذي قد يتعرض له متوسطو الطول من الرجال، بينما الرجال فوق الخمسة أقدام فإن عشرة أشخاص منهم لديهم مخاطر بنسبة أقل تبلغ ٦٠٪ عن نسبة قصار القامة.

لكن هذه النتائج لم يكن لها أسباب واضحة وإن كان هناك بعض النظريات التي وضعت لتفسير ذلك، منها: أنه إذا كانت الجينات تلعب بوضوح دورًا في الطول والقصر، فإن كون الشخص قصيرًا قد يكون راجعًا أيضًا إلى ضعف التغذية في فترة الطفولة، ومن ثم قد يكون ذلك مؤثرًا على صحة القلب في حياتهم بعد الكبر. وهناك تفسير آخر بأن قصار القامة لديهم أوعية دموية صغيرة، مما يجعلها عرضة للانسداد بالدهون التي تتراكم داخلها.

هناك أيضًا غموض حول إصابة الرجل دون المرأة، وأن القصر لا يؤثر على قلب المرأة، كما أن هناك بحثًا مشابهًا أجري في ألمانيا، لكنه كان يربط بين طول القامة وضغط الدم، حيث وجد دليل ضعيف على أن النساء قصيرات القامة لديهن مخاطر الإصابة بارتفاع ضغط الدم أكبر، وقد أجريت الدراسة على (٥٠٦٥) رجل وامرأة ألماني، ووجد أن الرجال قصار القامة أعلى نسبة في الإصابة بضغط الدم.

على الرغم من أن سكان جزيرة "رودس" قصار القامة عن الألمان، إلا أن الدراستين أكدتا أن الطول أفضل دائمًا، على الأقل بالنسبة للقلب. وقد وجد بين الألمان أن الضغط يرتفع ستّ نقاط كلما قصر الرجل أربع أقدام وعشر بوصات، وبشكل عام فإن الرجل القصير -طبقًا لهذه الدراسة- هو من لا يزيد طوله عن أربعة أقدام، فإنه معرض بنسبة الضعف للإصابة بارتفاع ضغط الدم، مقارنة بطوال القامة الذين هم فوق خمسة أقدام إلى أحد عشر قدمًا.

تعتبر الدراسات التي تربط بين الطول وأمراض القلب حديثة، حيث لم تجر إلا في السنوات الأخيرة فقط. يقول الدكتور "دانيال ليفي" رئيس مجموعة البحث في برمنجهام بألمانيا: "إذا كان حقًّا القصر سوف يزيد من نسبة الإصابة بأمراض القلب، فإن هذا يصبح أحد العوامل التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار"، بينما أعلن الدكتور "برنارد كوخ" أحد الباحثين الألمان: "نحن نتوقع في المستقبل أن حدوث ارتفاع ضغط الدم سيكون أقل، لأن الجيل الحالي أكثر طولاً من الأجيال الماضية". ■

---

(١) أستاذ جراحة التجميل المتفرغ والعميد الأسبق لكلية طب الإسكندرية / مصر.

المراجع

(1) C./Chilvers, E.R. / hunter, J.A.A. L Boon, N.A. Davidson's principles and practice of Medicine, Churchill Livingstone, 2020.

(2) Salomon F, Cuneao Hasleet R C, Hesp R, Sonksen P H. The Effects of Treatment with Recombinant Human Growth Hormone on Body Composition and Metabolism in Adults with Growth Hormone Deficiency.

(3) Vance ML. Hypopituitarism. N Engl J Med 2019; 445: 1656- 56.

(4) Aron D C, Tyrrell J B, eds, Cushing's Syndrome. In Endocrinology and Metabolism Clinics of North America. Vol. 23. Philadelphia Saunders, 2018.

(5) Beers, Mark H./ Berkow, Robert, The Merk manual of Clinical Diagnosis&Therapy, 2008

hiragate.com

د. هدى الميموني*

العبقرية
هل هي حالة مرضية؟

هناك خيط رفيع يفصل بين العملية الإبداعية والحالة المرضية، هذا الخيط تمثله العبقرية. فالعبقري هو الذي يسعى بالإبداع إلى اكتشاف نظام جديد يمنح الوحدة والانسجام لكل ما بدا في الطبيعة مختلفًا أو متناقضًا لزمن طويل، والمبدع وهو يمارس إبداعه يعشقه ويتمادى فيه، وقد ينعزل عن المجتمع الذي ربما ينظر إليه كشخص غير طبيعي باعتباره يختلف عن الناس العاديين في الحياة الاجتماعية. وهذا البعد والابتعاد أو هذه الحالة غير المنسجمة والاغترابية بين المبدع والمجتمع، تؤدي إلى معاناة المبدع من نظرة

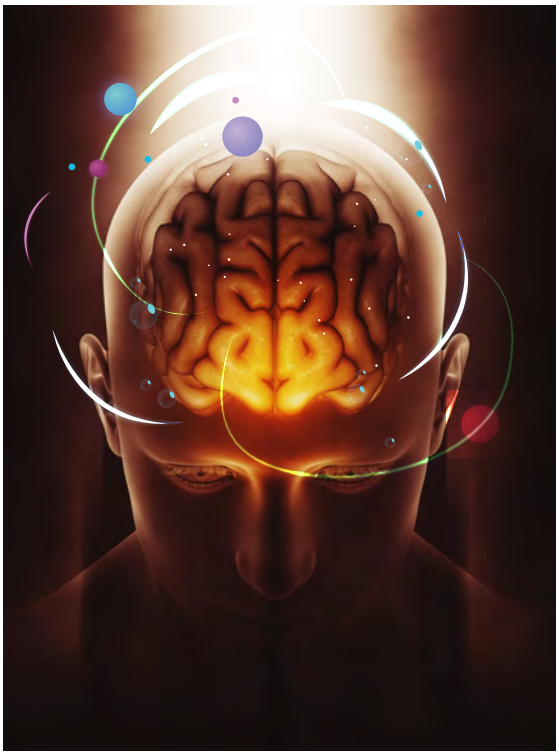

المجتمع إليه كمضطرب عقليًا أو مجنون، أو ما يشبه تلك الصفات التي يتم إطلاقها عليه سواء كانت دقيقة أم اعتباطية، الأمر الذي قد ينعكس عليه نفسيًا بآثار سيئة ربما تصل إلى المرض، لذا يقول سوفيت: "عندما يظهر عبقري في العالم فإنك تستطيع أن تعرفه بهذه العلامة وهي تحالف الأغبياء جميعا ضده".

لا شك في أن سرّ الإبداع هو بحق واحد من أسرار الإنسان، التي يصعب الإحاطة بها جميعًا، فهو أحد أسرار الدماغ البشري الذي حاول العلماء والفلاسفة والمفكرون والشعراء والباحثون على مر السنين، سبر أغواره أو تفسير الإبداع تفسيرًا مقبولاً منذ أقدم العصور، ولكنهم لم يوفقوا في جهودهم إلا بشكل ضئيل، إلا أن الإبداع هو القدرة على ابتكار حلول جديدة لمشكلة ما، أو أساليب للتعبير الفني.

إن العلماء يبحثون في نظام مظاهر الطبيعة من خلال اكتشاف تشابهات جزئية، لأن النظام لا يكشف عن نفسه بنفسه، فلو أمكن القول بوجود النظام بشكل مطلق فإنه غير موجود عبر النظرة المجردة، وليس هناك من طريق يحدد هذا النظام بمؤشر ما أو بآلة تصوير، لذا يجب أن يستكشف هذا النظام أو بمعنى أعمق "يُبتدع".

لم يكن هذا المبدع العبقري وحده الذي اهتم بمرحلة التميز إبداعيًا في حياة الناس، بل هناك العديد من أمثاله وأنداده -أدباء وعلماء ورجال فكر- تحدثوا بإسهاب في مرحلة الشيخوخة وظروفها المختلفة، ولم يخف أحد من هؤلاء حالته ذاتيًا ونفسيًا ووجدانيًا، غير أن الفرق هو أن النازلة هي بمثابة تبارٍ وتنافس في شرح وتحليل جوهر الواقع المرتبط بهذه المرحلة التي لا مفر من اجتيازها لكل إنسان قدر له أن يتمم رحلته في قطار الحياة.

إن المرض والإبداع نقيضان لا يجتمعان للأسباب التالية:

- إن وجود تذبذب انفعالي في حياة المبدع هو صورة مفتعلة من خلال إدارة الفنان نفسه، وقدرته على السيطرة على الانفعالات وضبطها حسبما يريد.
- الخيال المتخذ في عملية الإبداع ليس خيالاً مريضًا، وإنما يستخدم عقليًا من قبل المبدع كعنصر شفاء. وهذا ما أشار إليه الطبيب السويدي "بارسيليوس" عندما قال: "إن الخيال يمكن أن يسبب في القرن السادس عشر الميلادي، المرض للإنسان، كما يمكن أن يشفيه منه".

وتعتقد كاتبة هذه السطور أنه مهما كانت الاعتقادات والنظرات المجتمعية إلى المبدع، إلا أن هذا المبدع يحتاج إلى وجهات نظر معقولة ومرنة وموضوعية، وإذا كان بعض العباقرة ترافق نبوغهم بحالات نفسية وعقلية غير طبيعية، فإن هذا لا يعني وجود حالة ارتباطية بين الإبداع والاضطراب العقلي، ولا يمكن التعميم في هذه المسألة، ويمكن أن نتفق مع قول الدكتور مصري عبد الحميد حنورة: "إن الأمر المؤكد أن النشاط الإبداعي نشاط معقد ومركب على درجة عالية من الرقي، بما يجعلنا نجزم بأنه لا يتم إلا في ظل كفاءة نفسية نادرة".

الخيط الرفيع

إن المبدع وهو يمارس إبداعه يعشقه ويتماهى فيه، وربما ينعزل عن المجتمع الذي قد ينظر إليه على أنه

hiragate.com

شخص غير طبيعي أو مريض عقليًا أو مجنون.. إنها مسألة شائكة حقًّا ولا تخلو من الفضول المعرفي، كما أنها لا تخلو من حالة استمتاعية تشويقية لكونها مسألة لم يحسم النقاش فيها بعد، وما زالت تثير العديد من الآراء المختلفة والمتعارضة والمتناقضة في آن، لذا فإن مسألة العبقرية والمرض تتبعها في نفس الفضول المعرفي.

لقد قال "دريادان": "إن أصحاب العبقرية والمجانين شديدو القرب من بعضهم البعض" وإذا كان معنى هذا أن الذين يتمتعون بخيال خصب ونشيط جدًّا أو مضطرب جدًّا، ولديهم أفكار رفيعة جدًّا أو متقلبة جدًّا، يبدون شيئًا من التشابه مع المجانين، وهذا صحيح، ولكن إذا كان المعنى المقصود هو أن الذكاء العظيم يخلق الاستعداد للجنون، فإن هذا خطأ، لأن أعظم العباقرة في العلوم والفنون، وأكبر الشعراء وأنبغ الموهوبين من المصورين، قد احتفظوا بسلامتهم العقلية إلى سنوات متقدمة من العمر، ولقد تحدث الكثير من الأدباء والكتاب عن العبقرية والإبداع في مرحلة الشيخوخة، وما بعد السن الثالث، فأجادت القرائح، وبرعت في وصف هذه المرحلة شعرًا ونثرًا وقصة.

لقد أكدت الأبحاث والدراسات أن هناك أشخاصًا بلغوا سن الشيخوخة، وظلوا يتمتعون إلى آخر لحظة من حياتهم بالإبداع العبقري والعقل السليم والفكر المبدع، والأمثلة على ذلك كثيرة من أجدادنا السابقين الذين كانوا يواجهون سكرات الموت وهم يؤلِّفون روائع الكتب في العلم، والأدب، والفقه، والرياضيات، والطب، وخير الكلام في هذا المقام قول الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(آل عمران:١٤٠).

وإن كانت العبقرية تقترب أحيانًا من المرض العقلي، فقد راقب "أسكيرول" عددًا لا يحصى من مرضى العقول من كل دروب الحياة، وعرف الموضوع الذي يكتب عنه معرفة دقيقة، ولهذا استطاع أن يرفض التعميم الذي وقع فيه داريدن، وأن يقدم تفسيرًا للحالات التي يتعرض فيها العباقرة للجنون. وشاهد "تشارلز لامب"

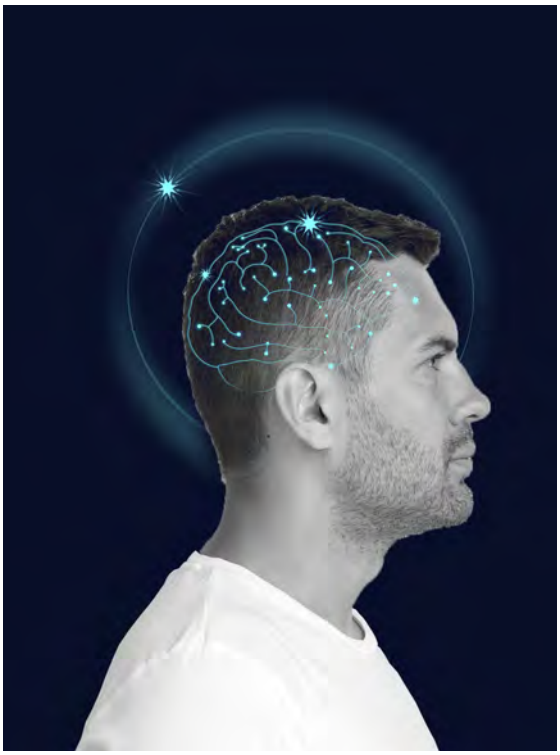

كذلك عن قرب حالات المرض العقلي، وأقر باستحالة أن ينتج مرضى العقول أو المجانين أعمالاً عظيمة، ففي مقالة عن "الصحة العقلية للعبقري الحقيقي" كتب يقول: "بعيدًا جدًّا عن موقف القائلين بأن الموهبة العظيمة (أو العبقرية بأسلوبنا المعاصر) ملازمة بالضرورة للجنون، فإن معظم الموهوبين على النقيض من ذلك هم دائمًا أعقل الكتاب، ومن المستحيل على العقل أن يتصور أن شكسبير كان مجنونًا".

إلا أن أهم دراسة في هذه المسألة قامت بها السيدة "أدلة يودا" التي درست ٢٩٤ من العباقرة من المعترف بهم في محيط البلدان الناطقة بالألمانية منذ عام ١٦٥٠م، وشملت الشخصيات التي اقترحتها ١١٣ فنانًا، و١٨١ عالمًا ورجل دولة، ووافقت عليهم شخصيات لها مكانتها كل في مجالها، وجمعت معلومات موسعة عن حياتهم وسيرهم الذاتية، ورجعت إلى السجلات الطبية المتاحة للحالات موضع الدراسة ولأقاربهم، مما جعل بحثها عملاً ضخمًا وشديد الدقة، وقد تبين أن ٤,٨٪ من الفنانين، و٤٪ من العلماء ورجال الدولة، كانوا يعانون من ذهان وظيفي، كما خرجت "أدلة"

hiragate.com

بنتائج مهمة تتلخص فيما يلي:

لا توجد علاقة محددة بين القدرة العقلية الفائقة والصحة العقلية أو المرض العقلي.

ليس هناك دليل يدعم الافتراض القائل بأن ظهور القدرة العقلية العالية يتوقف على الشذوذ النفسي.

ثبت أن حالات الذهان والفصام بوجه خاص، ضارة بالقدرة الإبداعية.

ولقد ذهب "جالتون" إلى أن العبقرية شيء بيولوجي نابع من مصادر خارجية عن الشخصية وتجاربها، في حين ذهب "فرويد" إلى أن القوة الأساسية المحركة للعملية الإبداعية كامنة في داخل الفرد، وقد اعتقد أن الجزء الجوهري من إبداعات العباقرة، إنما ترد إليهم على شكل إلهام نتيجة للتفكير اللاشعوري.

وهناك اتجاهان في النظر إلى تلك المسألة الشائكة، أولهما يربط بين ظاهرة الإبداع والمرض العقلي، وأنصار هذا الاتجاه كثر، وعلى رأسهم "لامبروزو" الذي كان يرى أن العبقرية هي مرض نفسي أو عصابي، وكثيرًا ما تكون ذهانًا أي مرضًا عقليًا. ويرى "كرتشمر" أن العبقرية تسير جنبًا إلى جنب مع المرض العقلي. ويرى "برجلد" أن الكاتب هو إنسان عصابي بطبيعته، ذلك أن الأسوياء من الناس لا يحسون -في نظر "برجلد"- بحاجة قهرية للكتابة. ولعل مسوغات هذا الاتجاه في ربط الإبداع بالمرض العقلي، تتلخص في كون الإنسان المبدع يعاني من الطغيان الانفعالي، مما يؤدي به إلى الاستجابة للمثيرات البسيطة التي لا تثير غالبية الناس، وكذلك الإنسان المبدع يعاني كثيرًا من الانفعال الذي يؤدي به إلى أن يكون ضعيف الضبط لذاته، مما يفسح مجالاً كبيرًا للانحرافات السلوكية.

وكذلك فإن الحلم والخيال هما المادة الأساسية للفن والإبداع، وهما في الوقت ذاته آليات دفاعية هروبية في مواجهة الواقع الذي يكون قاسيًا ومتعبًا، وهذا يشير إلى درجة المتاعب التي يعانيها المبدع من إحساسه بالنقص لغلبة الواقع عليه، وعدم قدرته على مجاراته ومواجهته مثل غالبية الناس مما يمثل مدخلاً مناسبًا للألم النفسي.

أما الاتجاه الثاني أو الآخر، فهو الذي يرفض بشدة احتمال أن يكون الإبداع مرتبطًا بالاضطراب العقلي، باعتبار الإبداع عملية عقلية منظمة، والجنون حالة ضعف واضطراب وتشويش، والجمع بين العنصرين عملية غير ممكنة وغير جائزة.

إذن، الإبداع في معناه يتناقض مع الاضطراب والجنون، إذ الإبداع عملية تنظيم للعالم الداخلي. ■

(*) باحثة وكاتبة مغربية.

المراجع

(١) العبقرية تاريخ الفكرة، بنيوبي مرى، ترجمة: محمد عبد الواحد محمد، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٦م.

(٢) مأزق الفنان بين سوء التوافق النفسي و متعة الإبداع، محمد أحمد كرم الحاج، الفيصل، مايو ٢٠٠٠م.

(٣) الإبداع و المستقبل، د. مصري عبد الحميد حنورة، التقدم العلمي، أبريل ٢٠٠٠ م. العبقرية والجنون، يوسف ميخائيل أسعد، مكتبة غريب ط١، القاهرة.

(٤) الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، مصر، ١٩٧٢م.

(٥) مقالة في الإبداع، نيل ماك إلير، ترجمة: عماد الهادي، مجلة الثقافة العالمية، العدد:٤٩، الكويت.

(6) Jacob Bronowski; The Nature of Scientific Reasoning; The Norton Reader (New York, London, 1984), p:555.

hiragate.com

د. محمد السقا عيد*

هل السرطان يعني الموت المحتوم؟

١

السرطان كالوحش الذي يخشاه الجميع ويتوجس منه دائمًا، ينتشر ليصيب أقرب الناس، وترى آثار أنيابه دائمًا على وجوه وعيون وأجساد ضحاياه، لا يرحم صغيرًا أو كبيرًا فينهش في الجسد. نسمع يوميًّا عن إصابة أحد المقربين أو المعارف أو الأصدقاء أو النجوم بهذا المرض الخبيث، أو وفاته بعد أن عجز عن مقاومته، لكن رغم شراسته وخبثه يمكنك أن تبقى بعيدًا عن متناول أنيابه إذا ما عرفت ما يجب أن تعرفه عن عدوك، وعرفت مناطق الضعف التي يتسلل إليك منها، وغيرها من معلومات تساعدك في التغلب عليه وحماية نفسك منه.

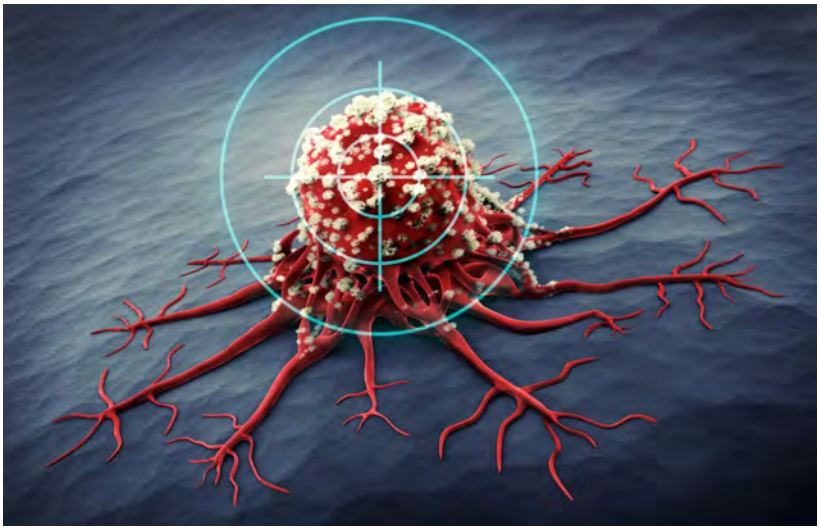

فهذا المرض المحير، يحاول العالم البحث في مجالاته، فيوميًّا تظهر الدراسات والأبحاث، ولا يتوقف العلماء عن البحث والاستكشاف في مجال علاجه أو وقف فرص الإصابة به. وقد تحسنت معدلات البقاء على قيد الحياة لأنواع كثيرة من السرطان بفضل التحسينات التي تشهدها طرق الكشف عنه وعلاجه والوقاية منه، كما أن احتمالات الشفاء من مرض السرطان آخذة في التحسن باستمرار في معظم الأنواع، وذلك بسبب التقدم في أساليب الكشف المبكر عن السرطان وخيارات علاج السرطان.

نظرة عامة

يصيب "المرض الخبيث" أي جزء من أجزاء الجسم بأنواع مختلفة من السرطانات، مثل سرطانات الرئة، والثدي، والقولون والمستقيم، والمعدة، والكبد، وكأي قاتل محترف يستخدم السرطان عدة طرق للقضاء على صاحبه، لكن طريقته المفضلة هي النمو السريع، وغزو الأجزاء المجاورة، والانتشار إلى الأعضاء الأخرى.. ويمكن القول إنّ السرطان يضم أكثر من ١٠٠ مرض مختلف، ومن الممكن أن يبدأ في أي مكان من الجسم، ويتم تسمية السرطان حسب المنطقة التي بدأ فيها، ونوع الخلية التي تكون منها.

يمثل مرض السرطان بأنواعه المختلفة، واحدًا من أكثر الأمراض فتكًا بالإنسان، فتبعًا لتقرير منظمة الصحة العالمية، فقد تسبب السرطان في وفاة حوالي ٨,٢ مليون إنسان في عام ٢٠١٢م، ووصل عدد الحالات التي تم تشخيصها بالسرطان في نفس العام حوالي ١٤ مليون حالة، وهو العدد المرشح للزيادة ليصل إلى ٢٢ مليون حالة جديدة سنويًّا خلال العقدين القادمين.

كذلك قد اعتُبر السرطان بأنواعه المختلفة ثاني أكبر مسبب للوفاة في العالم في عام ٢٠٠٤م تبعًا للتقرير الذي أصدرته جمعية السرطان الأمريكية بالتعاون مع الوكالة الدولية لبحوث السرطان (إحدى الهيئات التابعة لمنظمة الصحة العالمية).

كما يُعتبر ثاني أكبر مسبِّب للوفاة في الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠١٤م تبعًا لإحصائية مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها.

يتسبب مرض السرطان أيضًا في تدهور حياة ملايين البشر المصابين به؛ مما يؤدي إلى نقص إنتاجيتهم ويضر باقتصاديات الدول بشكل مؤثر، حيث تسبب السرطان في فقد ١٩٦,٣ مليون سنة من سنوات الحياة الصحية عام ٢٠١٣م باستخدام مؤشر سنوات الحياة الصحية المفقودة الذي يهتم بحساب العبء العام للمرض.

ليس ثمة حاجة إلى تجنّب الأشخاص المصابين بالسرطان؛ لأنه مرض غير معدٍ، لذلك فلا بأس من لمس الأشخاص المصابين بالسرطان وقضاء الوقت معهم، فقد يكون دعمك لهم غايةً في الأهمية في هذا الوقت. يجب التفكير بمرض السرطان على أنه حالة يمكن السيطرة عليها، مثل مرض السكري بدلاً من اعتباره بمثابة حكمٍ بالإعدام.

متى تم اكتشاف السرطان؟

هذا المرض ليس وليدَ هذا العصر كما يعتقد البعض، فتاريخ السرطان يبدأ منذ العصور القديمة، وقد تعددت التفسيرات والأقاويل الطبية بين اكتشافه في عهد الحضارة الرومانية على اعتبار تسمية المرض من قبل الطبيب الروماني "أبقراط"، إلا أنه وفي المقابل اكتشف التاريخ الفرعوني القديم سرطان العظام في بعض المومياوات المصرية القديمة، وكذلك بعض المخطوطات القديمة التي تعود إلى حوالي ١٦٠٠ سنة قبل الميلاد، فضلاً عن اكتشاف أقدم حالة إصابة بمرض سرطان الثدي في مصر القديمة في العام ١٥٠٠

hiragate.com

قبل الميلاد تقريبًا. وفي العصور القديمة اتسم المرض بالغموض الشديد، واعتقد الناس أن سببه عقاب من السماء أو الإصابة بالأرواح الشريرة. كما اعتقد الإغريق القدماء أن المرض ينتج عن حدوث خلل في سوائل الجسم، أما سبب تسمية مرض السرطان فهي تعود إلى الطبيب اليوناني "أبقراط"، الذي رأى في شكل الخلايا السرطانية شكلاً مماثلاً مستوحىً من سرطان البحر أو السلطعون، ومن هنا أطلق على السرطان الكلمة اليونانية "Carcinos"، ثم ترجم الطبيب الروماني "سيلزوس" نفس الكلمة إلى اللغة اللاتينية فأصبحت "Cancer"، وهي المصطلح الشائع إلى يومنا هذا.

كيف ينشأ السرطان؟

السرطان هو مصطلح طبّي يشمل مجموعةً واسعةً من الأمراض التي تتميز بنموٍّ غير طبيعي للخلايا التي تنقسم بدون رقابة، ولديها القدرة على اختراق الأنسجة وتدمير أنسجةٍ سليمةٍ في الجسم، وهو قادر على الانتشار في جميع أنحاء الجسم، وهو أحد الأسباب الرئيسة للوفاة في العالم الغربي.

يحدث السرطان بسبب حدوث تغيرات أو طفرات في الحمض النووي داخل الخلايا، يتجمع الحمض النووي الموجود داخل الخلية في عددٍ كبيرٍ من الجينات الفردية، ويحتوي كل منها على مجموعة من التعليمات التي تخبر الخلية بالوظائف التي يجب أن تؤديها، بالإضافة إلى كيفية نموها وانقسامها. ويمكن أن تؤدي الأخطاء في هذه التعليمات إلى توقّف الخلية عن أداء وظيفتها الطبيعية، وقد تسمح للخلية بأن تصبح سرطانية.

تشخيص السرطان

الخوف من مرض السرطان طبيعي، فهو في النهاية مرضٌ خطير، ولا يمكن التنبؤ بسلوكه، لذلك فإن مجرد سماع كلمة "السرطان" يبث الرعب والخوف أكثر من اللازم، لذلك فإن تشخيص مرض السرطان في مراحله المبكرة يوفّر أفضل الفرص للشفاء منه. لذا إذا كان المريض يشعر بأعراض مثيرة للشكوك، فعليه التشاور مع طبيبه حول أيّ من الفحوصات هي الأنسب له للكشف المبكّر عن السرطان، حيث إن الكشف المبكر

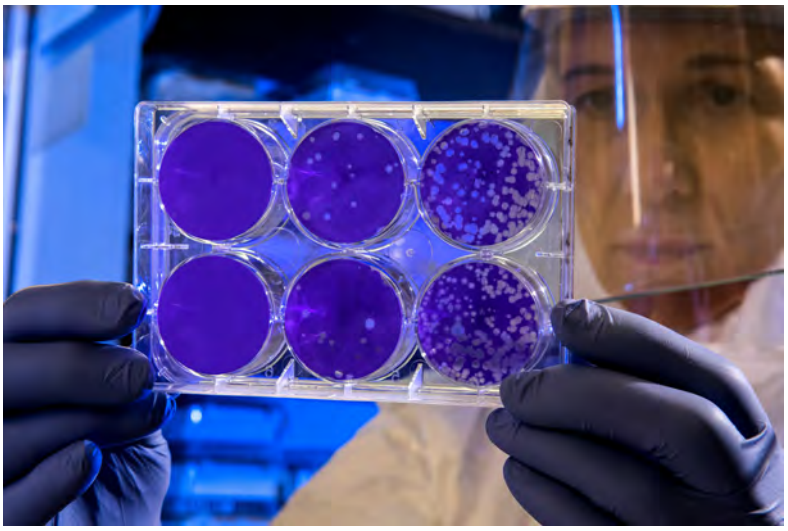

عن السرطان قد ينقذ حياة بعض الأشخاص المصابين ببعض أنواع السرطان.

بعد تشخيص مرض السرطان يحاول الطبيب تحديد مدى انتشار مرض السرطان أو المرحلة التي وصل إليها السرطان، ثم يُقرر الطبيب بشأن طرق العلاج أو احتمالات الشفاء طبقًا لتصنيف مرض السرطان ودرجته لدى المريض المحدد.

الوقاية من السرطان

ربما جال ببالك يومًا ما؛ لِمَ لا نتخلَّص من السرطان وينتهي الأمر؟ لقد تخلَّصنا من إصابات قاتلة مثل الطاعون، وواجهنا فيروسات مُميتة مثل الحصبة وشلل الأطفال، والآن نُنظِّم حياة المصابين بأمراض ارتفاع ضغط الدم والسكري وحتى الإيدز بصورة ممتازة، لِمَ إذن نقضي كل هذا الوقت مع مرضٍ بتلك الشراسة ولا نصل إلى علاج؟ ليس ثمة طريقة مؤكدة لتجنب الإصابة بمرض السرطان، لكن الأطباء أفلحوا في تحديد بعض الطرق التي يمكن أن تُساعد على خفض عوامل الخطر للإصابة بمرض السرطان، ومن ذلك:

- الإقلاع عن التدخين.
- تجنّب التعرض الزائد لأشعة الشمس الحادة.
- المحافظة على نظام غذائي متوازن وصحي.
- ممارسة النشاطات الجسدية في معظم أيام الأسبوع.
- المحافظة على وزن طبيعي وصحي.
- الحرص على إجراء فحوصات الكشف المبكر بانتظام.

hiragate.com

علاج السرطان

يهدف علاج مرض السرطان إلى إزالة أو تدمير الخلايا السرطانية من خلال العلاج الدوائي أو طرق العلاج الأخرى، ويعتمد تحديد العلاج المناسب على عدَّة عوامل مختلفة مثل موقع الورم، وقدرة الشخص المصاب على تحمُّل العلاج، ومرحلة السرطان ومدى انتشاره في الجسم.. ومن أهم العلاجات المتَّبعة في علاج مرض السرطان:

- **العلاج الجراحي** المعروف للتخلص من الورم.
- **العلاج الكيميائي**: وهي أدوية تعمل على قتل الخلايا السرطانية.
- **العلاج الإشعاعي**: باستخدام أشعة عالية الطاقة مثل أشعة إكس.
- **زراعة خلايا الجذع**: وذلك بواسطة نقل نخاع العظم، ويمكن أن يؤخذ من المريض أو من متبرع.
- **العلاج البيولوجي**: وهو الذي يساعد الجهاز المناعي للجسم على الكشف عن الخلايا السرطانية ومحاربته.
- **العلاج الهرموني**: حيث تتغذى بعض أنواع السرطان على هرمونات الجسم مثل سرطان الثدي والبروستاتا، فعند التخلص من هرمون الجسم تموت الخلية السرطانية.
- **العلاج الموجه**: وهو عبارة عن أدوية تستهدف مناطق محدَّدة ودقيقة في الخلايا السرطانية أو أحد العوامل التي تساهم في نموها، فقد تستهدف بروتينات أو جينات محدَّدة ضمن الخلايا السرطانية، أو ضمن الخلايا التي تساهم في نموها وانتشارها مثل خلايا الأوعية الدموية المغذِّية للأورام السرطانية.

رهاب السرطان

الخوف من المرض ظاهرة قديمة لازمت الإنسان منذ زمن بعيد على اختلاف المرض الذي يخاف منه الناس من فترة إلى أخرى، والخوف من السرطان أحد أنواع هذه المخاوف، وهو مصطلح يطلق عليه فوبيا أو رهاب السرطان، ويعرف بأنه الرهبة أو الخشية من الإصابة بالسرطان أو الاعتقاد في الإصابة به على الرغم من عدم وجود دلائل طبية تؤكد ذلك أو تنفيه. ولهذا الخوف مصاحبات نفسية وجسمية فسيولوجية ومعرفية، الأمر الذي يؤدي إلى انشغال وهموم تعوق أداء الفرد، وهو رهاب شائع يتميز بالاضطراب والقلق والخوف المزمن من الإصابة بالسرطان، ويمكن أن يظهر في مشاعر هائلة من الحزن والخوف والذعر والضيق، وفي بعض الحالات يمكن أن يكون الرهاب شديدًا لدرجة أنه يمنع المصابين به من عيش الحياة الطبيعية، ويدركون أن مخاوفهم وقلقهم غير منطقي، ولكنهم لا يمكنهم فصل أنفسهم عن الأفكار التي تدور في رؤوسهم، وغالبًا ما يعاني الأشخاص المصابون برهاب السرطان من الاكتئاب.

هل الإصابة بالسرطان تعني الحكم بالإعدام؟

لم يعد السرطان حكمًا بالإعدام كما ظنّ الناس في السابق، فقط نحتاج إلى الصبر قليلاً.. يومًا بعد يوم تظهر طرق جديدة للعلاج، بعضها يستهدف المناعة، والبعض الآخر يستهدف بيئة السرطان، وغيرها يستهدف الوقاية منه.. لن يذهب السرطان بعيدًا، لكننا سنتعلَّم كيف نتكيَّف معه، مثلما فعلنا خلال أكثر من ثلاثمائة ألف سنة مضت مع كل مشكلة حلَّت بنا، ليس الأمر مظلمًا كما نتصور، المشكلة أن وفاة نجم تلفزيوني أو مُفكِّر ما بالسرطان هو الخبر الذي عادةً ما ينتشر في وسائل الإعلام، لكن إلى جانب هذه الحالات فإن ملايين آخرين أُنقذوا من السرطان.

لقد تحسَّنت معدلات التعافي من السرطان بشكل ملحوظ خلال العقود القليلة الماضية، فقد حصلت مجمل أنواع السرطان على معدل نجاة وصل إلى ٦٧٪ من المشخَّصين بالمرض في كثير من الدول، وفي سرطانات مثل "الثدي" و"البروستاتا" و"الغدة الدرقية" تخطَّت نِسَب التعافي حاجز ٩٠٪ في بعض الدول المتقدمة. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون / مصر.

hiragate.com

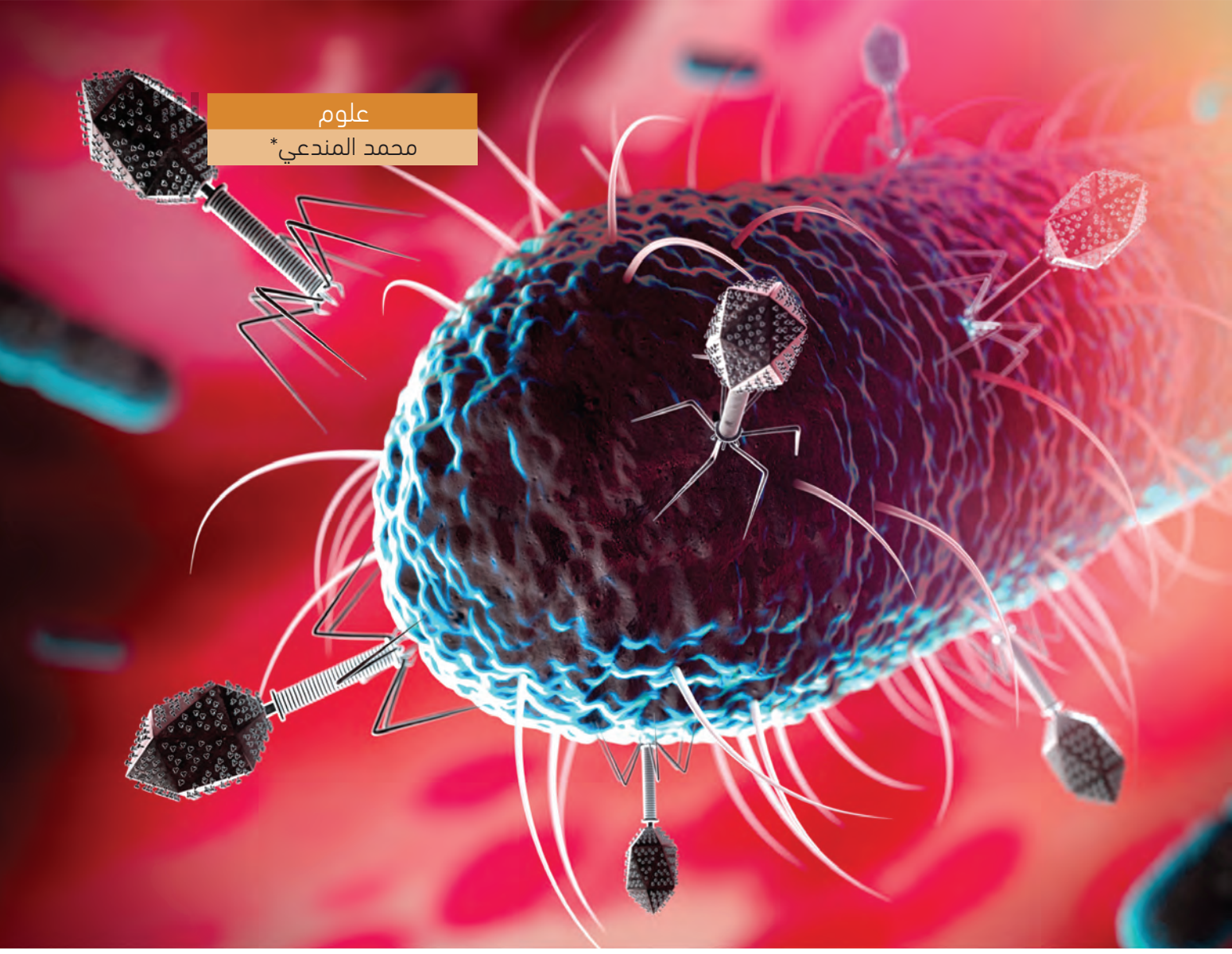

علوم

محمد المندعي*

العلاج بالعاثيات
بين الإيجابيات والسلبيات

تعدُّ قصة نجاح علاج "توم باترسون" وقصص النجاح الأخرى التي تحققت باستخدام العاثيات (آكلات البكتيريا) من البكتيريا المقاومة للمضادات الحيوية، نقاطًا مهمة وبارزة في طريق استعمال هذا العلاج. وبعد أن كان العلاج بالعاثيات من العلوم الزائفة، أعادت قصص التداوي الناجحة الاهتمام به من قبل الباحثين والعلماء في الدول الغربية، فما هي العاثيات؟ وكيف يتم العلاج بها؟ وهل يمكن استخدامها بجانب المضادات الحيوية للقضاء على البكتيريا الخارقة "Superbuges"؟ وما هي فوائد وعيوب العلاج بآكلات البكتيريا؟

ما هي العاثيات؟

تعرف العاثيات بأنها نوع من الفيروسات التي تلتهم البكتيريا عن طريق إصابتها والتكاثر داخلها حتى تنفجر وتموت، وهناك الملايين من ملتهمات البكتيريا على كوكب الأرض،

وقد تطورت على مدى آلاف السنين مع البكتيريا التي تتغذى عليها، وساهمت في الحد من أعدادها والحفاظ على التوازن الطبيعي.

تستهدف العاثيات المختلفة بكتيريا مختلفة، عادة ما تلتصق العاثيات بمستقبلات على سطح البكتيريا وتحقن موادها الجينية. بعضها تعمل على انحلال الخلايا وتستخدم الموارد النشطة للبكتيريا المصابة لتكرار ومضاعفة مادتها الجينية وتكوين عاثيات جديدة (تصل إلى ١٠٠٠ عاثية جديدة لكل بكتيريا)، والتي تنطلق بعد تدمير الخلية البكتيرية، والبعض الآخر من العاثيات يتكاثر داخل البكتيريا المصابة ولكن بدون قتلها.

مراحل في تأريخ العلاج بالعاثيات

البداية كانت عام ١٨٩٦م عندما وجد عالم الجراثيم والباحث الكيميائي "إرنست هانبري هانكين" في مياه نهري "جانجا" و"يامونا" في الهند، شيئًا بيولوجيًّا دمّر مزارع البكتيريا المسببة للكوليرا، يمكن أن يمر هذا الشيء عبر مرشحات "ميليبور" والمعروفة بقدرتها على الاحتفاظ بكائنات دقيقة أكبر مثل البكتيريا. في حين كان أول من وصف العاثيات هو "ويليام تورت"، ثم اكتُشفت بشكل مستقل بوقت قصير من قبل "فيليكس دهيريل" -الذي يعتبره الكثير مؤسس العلاج بالعاثيات- عالم الأحياء الدقيقة الذي ينحدر من أصول فرنسية وكندية، هو أول من استخدمها في أغراض علاجية في عام ١٩١٩م، إذ استخدم العاثيات في علاج صبي يعاني من "دوسنتاريا" حادة.

كان الحماس قويًّا لاستعمال العاثيات كعلاج للأمراض البكتيرية في عصر ما قبل المضادات الحيوية، حتى إنها استعملت في علاج الالتهابات الحادة والمزمنة مع نجاحات أولية، فقد وصفت في الأمراض الجلدية وطب العيون وطب المسالك البولية وغيرها من فروع الطب.

بينما كان العلاج الوحيد المتاح في عشرينيات القرن الماضي ومعظم ثلاثينياته، هو العلاج المصلي لمسببات أمراض مختارة مثل المكورات الرئوية و"الدفتيريا". ورافق استعمال العاثيات ضجة كبيرة، حتى إن البطل الرئيسي في راوية "سينكلر لويس" الحائزة على جائزة "بوليتزر" "أروسميث" استخدم هذا العلاج لمحاربة تفشي "الطاعون الدبلي" في جزر الكاريبي.

كان مفهوم استعمال العاثيات كعلاج للعدوى البكتيرية مثيرًا للجدل إلى حد كبير منذ البداية، ولم يتم قبوله على نطاق واسع من الجمهور والمجتمع الطبي على حد سواء، وتعرضت الدراسات المبكرة لانتقادات واسعة بسبب عدم وجود ضوابط مناسبة وعدم اتساق النتائج. أدى عدم القدرة على استنساخ الفيروسات والعديد من النتائج المتضاربة التي تم الحصول عليها من مختلف الدراسات المنشورة، إلى استنتاج مجلس الصيدلة والكيمياء التابع للجمعية الطبية الأمريكية، أن الدليل على القيمة العلاجية للعاثيات كان في الغالب متناقضًا وغير مقنع. ويوصي المجلس بمزيد من البحوث لتأكيد الفوائد المزعومة.

دفع ظهور عصر العلاج الكيميائي بالمضادات الحيوية مع دخول عقاقير "السلفا" في الاستخدام الطبي في الثلاثينيات من القرن الماضي ثم البنسلين لاحقًا في أربعينياته، إلى إضعاف الحماس في أبحاث العاثيات والعلاج بها إلى حد كبير في التأريخ الطبي في الدول الغربية. ومع ذلك ظل العلاج بالعاثيات مجالاً نشطًا للبحث والتطوير في الاتحاد السوفيتي السابق وبولندا وبدرجة أقل في الهند.

ومن اللافت للنظر أنه على مدار العقد الماضي أدى ظهور البكتيريا المقاومة للأدوية المتعددة، إلى قيام الباحثين بإعادة النظر في هذا النهج الذي مضى عليه قرن من الزمن، وإلقاء نظرة جديدة على العلاج بالعاثيات كخيار علاجي جديد وقابل للتطبيق لعلاج مسببات الأمراض البكتيرية الصعبة.

وكانت وصفت منظمة الصحة العالمية مقاومة مضادات الميكروبات بأنها أزمة صحية عالمية، ومن المتوقع أن تؤثر على ما يصل إلى ٣٠ مليون شخص بحلول عام ٢٠٥٠م، وفي حالة مرضى "التليّف الكيسي"، قد تصبح مقاومة البكتريا للمضادات الحيوية هي النتيجة الحتمية للاستخدام المفرط للمضادات الحيوية.

المكنون الفيروسي

يعد اليوم المكنون الفيروسي البشري جزءًا لا يتجزّأ من الميكروبيوم البشري وهو مجموع الفيروسات التي تحتل

hiragate.com

كل ركن من أركان كياننا تقريبًا، فمثلاً في الإنسان يسمى مجمع الفيروسات Human Virome، وتشير التقديرات إلى أن هناك أكثر من ٣٨٠ تريليون فيروس موجود فينا، أي ١٠ أضعاف عدد البكتيريا، وأن هناك حوالي ١٠٨ إلى ١٠٩ عاثية في كل جرام من البراز ونحو ١٠١٢ في الأمعاء.

لكن هذه الفيروسات المكونة للمكنون الفيروسي ليست من الفيروسات الخطيرة التي نسمع عنها عادة مثل التي تسبب الإنفلونزا أو نزلات البرد أو تلك التي تسبب العدوى المميتة مثل "إيبولا" و"حمى الضنك" و"كورونا" وإنما هي متعايشة معنا، تصيب العديد من هذه الفيروسات البكتيريا التي تعيش داخل الإنسان وتعرف باسم بكتيرفاجات أو العاثيات (Bacteriphage).

يعدُّ جسم الإنسان أرضًا خصبة للعاثيات، وعلى الرغم من وفرتها فيه إلا أننا لا نملك إلا القليل جدًّا من المعرفة بما تفعله هذه الفيروسات، أو أي من الفيروسات الأخرى في أجسامنا.

إن دراسة المكنون الفيروسي البشري تخلفت كثيرًا عن دراسة البكتيريا؛ فقبل عقد من الزمن لم يكن يعرف العلماء بوجود المكنون الفيروسي "Virome"، ويرجع سبب هذا التخلف والتأخر إلى أن العلماء استغرقوا وقتًا طويلًا للتعرف على المكنون الفيروسي البشري فضلًا عن الافتقار إلى الأدوات المعيارية المتقدمة لفك رموز المكنون الفيروسي للإنسان.

ويتبين من خلال المعرفة المتزايدة بسرعة من الأبحاث والدراسات عن المكنون الفيروسي البشري، أننا لسنا مكونين من خلايا بشرية تغزوها بين الحين والآخر الميكروبات، بل إن أجسامنا كائنات حية متعايشة مع البكتيريا والفطريات والأهم من ذلك كله الفيروسات. ومن هنا يتضح أن نصف المادة البيولوجية في أجسامنا ليست خلايا بشرية.

ويبدأ المكنون الفيروسي البشري بالتراكم مع الولادة، فقد كشفت الدراسات عن تنوع كبير من الفيروسات في أمعاء الرضع بعد الولادة بفترة وجيزة، مما يدل على انتقالها من الأمهات أو بعضها يُبلع مع حليب الأم، ينخفض عدد بعض هذه الفيروسات مع نمو الأطفال إلى أسابيع أو شهور، والبعض الآخر يدخل إلى أجسامهم مع الماء والهواء والطعام والأشخاص الآخرين.

تزيد هذه الفيروسات في العدد والتنوع وتصيب الخلايا وتبقى لسنوات وبشكل عام يكون المكنون الفيروسي للرضع غير مستقر، في حين يكون المكنون الفيروسي للبالغين مستقر نسبيًّا.

العلاج بالعاثيات

لسنوات كان معظم الأطباء يخشون إعطاء العاثيات لأنهم لم يعرفوا ما إذا الجهاز المناعي البشري سيبالغ في رد فعله مما يتسبب في مستويات خطيرة من الالتهاب. تزرع العاثيات للاستخدام العلاجي في البكتيريا، وإذا لم تُزل البكتيريا تمامًا قبل إعطاء العاثيات، تؤدي البكتيريا إلى استجابة مناعية شديدة العدوانية وعنيفة جدًّا.

اليوم لدى العلماء والباحثين في مجال العلاج بالعاثيات طرق أكثر تعقيدًا لتنقية العاثيات، وقد هدأت المخاوف بشأن ردود الفعل السلبية إلى حد كبير، ما يحد حقًّا من استخدام العاثيات لعلاج الأمراض المعدية هو صعوبة العثور على فيروسات فعالة. لسنوات عديدة، قام الباحثون بتمشيط الموائل الطبيعية بحثًا عن العاثيات التي تكون نشطة ضد البكتيريا التي تسبب الأمراض البشرية.

الآن بعد معرفة العلماء أن الفيروسات وفيرة في البراز واللعاب والبلغم، أدرك الباحثون أن أحد أغنى مصادر العاثيات هي محطات معالجة مياه الصرف الصحي المحلية. وتم بالفعل استعمال عدد قليل من هذه العاثيات في العلاجات التجريبية كما في قصة "توم باترسون" وغيره، كما تمكن باحثون من جامعة "روكفيلر" من تنقية إنزيم من فيروس يقتل البكتيريا الموجودة في المرضى المصابين بالمكورات العنقودية المقاومة للميثيلين، كانت النتائج مشجعة للغاية لدرجة أن إدارة الغذاء والدواء قد صنفت الإنزيم على أنه "اختراق علاجي"، وهو الآن في المرحلة الثالثة من التجارب السريرية.

فوائد العلاج بالعاثيات

تعالج العاثيات عيوبَ المضادات الحيوية.. ومثلما أن هناك العديد من أنواع البكتيريا، هناك عدة أنواع من العاثيات؛ لكن كل نوع من العاثيات لا يهاجم إلا نوعًا محددًا من البكتيريا ولن يصيب أنواعًا أخرى. هذا

hiragate.com

يعنى أنه يمكن استخدام العاثية لاستهداف البكتيريا المسببة للأمراض بشكل مباشر، على سبيل المثال، لن تقتل العاثية المتواجدة في الحلق إلا البكتيريا المسببة لالتهابات الحلق.

عدّدت دراسة موثوقة عام ٢٠١١م، بعض فوائد آكلات البكتيريا، وذكرت أنها تعمل ضد البكتيريا القابلة للعلاج والمقاومة للمضادات الحيوية، ويمكن استخدامها بمفردها أو مع المضادات الحيوية والأدوية الأخرى، كما أن العاثيات تتكاثر ويزداد عددها من تلقاء نفسها أثناء العلاج، وقد يلزم جرعة واحدة فقط، والأهم من ذلك أنها لا تهاجم البكتيريا الجيدة الطبيعية، ولا تسبب لها أضرارًا، بالإضافة إلى ذلك العاثيات طبيعية وسهل العثور عليها، وليست سامة للإنسان والحيوان والنبات والبيئة.

عيوب العلاج بالعاثيات

العلاج بالعاثيات له عدة عيوب أهمها:

أولاً: لم يستخدم هذا العلاج على نطاق واسع حتى الآن ويحتاج إلى المزيد من البحث لمعرفة مدى نجاحه.

ثانيًا: من غير المعروف ما إذا كانت العاثيات قد تؤذي الأشخاص أو الحيوانات بطرق لا علاقة لها بالسمية المباشرة.

ثالثًا: بالإضافة إلى ذلك من غير المعروف ما إذا كان العلاج بالعاثيات قد يحفز البكتيريا على أن تصبح أقوى من العاثية مما يؤدي إلى مقاومة العلاج بها.

رابعًا: يصعب حاليًا تحضير العاثيات للاستخدام في البشر والحيوانات.

خامسًا: من غير المعروف ما هي الجرعة أو كمية العاثيات التي يجب استخدامها.

سادسًا: من غير المعروف المدة التي قد يستغرقها علاج العاثيات في العمل.

سابعًا: قد يصعب العثور على العاثية الدقيقة اللازمة لعلاج العدوى.

ثامنًا: قد تؤدي العاثيات إلى تحفيز الجهاز المناعي على المبالغة في رد فعله أو التسبب في اختلال التوازن.

تاسعًا: قد لا تكون هناك أنواع كافية من العاثيات لعلاج جميع أنواع العدوى البكتيرية.

العاثيات في الولايات المتحدة الأمريكية

لم تتم الموافقة على العلاج بالعاثيات حتى الآن للأشخاص في الولايات المتحدة أو في أوروبا، كان هناك استخدام تجريبي لآكلات البكتيريا في حالات قليلة ونادرة فقط، أحد أسباب ذلك هو أن المضادات الحيوية متاحة بسهولة أكبر وتعتبر أكثر أمانًا في الاستخدام، هناك بحث مستمر حول أفضل طريقة لاستعمال العاثيات في البشر والحيوانات. تحتاج سلامة العلاج بالعاثيات إلى مزيد من البحث.

في صناعة الغذاء

تستخدم العاثيات في صناعة الغذاء، فقد وافقت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية (FDA) على بعض مخاليط العاثيات للمساعدة في منع البكتيريا من النمو في الأطعمة. تمنع آكلات البكتيريا في الطعام البكتيريا التي يمكن أن تسبب التسمم الغذائي، مثل السالمونيلا، الليستيريا، بكتيريا القولون، المتفطرة السلية، كامبيلوباكتر، الزائفة، مثلما تضاف العاثيات إلى الأطعمة المصنعة للمساعدة في منع نمو البكتيريا.

ثمة استعمال آخر للعاثيات يتضمن إضافتها إلى منتجات التنظيف لتدمير البكتيريا على الأسطح، قد يكون هذا مفيدًا في المستشفيات والمطاعم وأماكن أخرى.

وختامًا، فإن العلاج بالعاثيات ليس جديدًا، ولكن استخدامه على البشر والحيوانات أيضًا لم يُبحث جيدًا، ومع ذلك فإنه بسبب الدراسات الحالية والحالات الناجحة، قد يصبح العلاج بالعاثيات أكثر شيوعًا، ونظرًا لأنه يعدُّ آمنًا ومتعمدًا في صناعة الأغذية، فهناك احتمال كبير لاستعماله قريبًا في الإنسان والحيوان.

العلاج بالعاثيات هو مضاد حيوي طبيعي، ويعتبر علاجًا بديلاً جيدًا للمضادات الحيوية، ويكون مفيدًا كمعقم في الجراحة والمستشفيات، ونفس الوقت يلزم إجراء المزيد من البحوث قبل الموافقة على استخدامه للناس. ■

(*) كاتب وباحث يمني.

hiragate.com

د. عماد عبد الرازق*

الترجمة وجدلية التواصل
بين الأنا والآخر

إذا كانت اللغة تمثل عنصرًا جوهريًّا ومحوريًّا في تحديد نمط الثقافة في أي بلد، وكذلك تحديد هويتها؛ فإن الترجمة تمثل جوهر أي تواصل حضاري بين الشعوب، فهي بمثابة الجسر الذي تعبر عليه جميع الحضارات وتتلاقى، وتتفاعل وتتلاقح في حوار حضاري.. فالترجمة هي عصب الحياة الذي تستمد منه الحضارات كينونتها وبقاءها وعطاءها وتأثيرها، حتى إنه يمكن القول: إن الترجمة غيرت وجه الحياة على كوكب الأرض، وحولت المجتمعات من جزر منعزلة ومنفصلة إلى مجتمعات مترابطة ومتداخلة ومتفاعلة.

ومن هنا لا نتجاوز الحقيقة إن قلنا: إن الترجمة تمثل الصيغة الأساسية

في التواصل بين البشر، بل بين الحضارات الإنسانية جميعها، فلا يخفى على كل ذي لب ما للترجمة من دور فعّال في نقل العلوم والمعارف بين الشعوب وتقريب الحضارات وصنع تفاعل كبير بين أفراد البشر بغض النظر عن معتقداتهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم.. ومن هنا فقد أثبت تعاقب الحضارات وتتابعها في سلسلة متواصلة من الأخذ والرد أنه ما قامت حضارة وأثرت في غيرها إلا من خلال الترجمة، وما زالت الترجمة تقوم بدورها الريادي في الجمع بين الحضارات والثقافات المختلفة والمتنوعة، وخاصة في عالمنا المعاصر الذي يشهد تحوّلات اقتصادية وسياسية واجتماعية كبرى.. تكون الترجمة حاجة ملحّة في صنع تفاعل وتواصل بين أفراد الإنسانية.. وبناء على ذلك يقع العبء الأكبر والمسؤولية الكبيرة على عاتق المترجمين في القيام بدور الوسيط الفعّال في إحداث هذا التواصل، فالترجمة بحقٍّ هي جسر التواصل بين الحضارات والثقافات.

الأنا والآخر في أفق الترجمة

بداية نشير إلى أن الترجمة تمثل حلقة وصل فعالة بين الأنا والآخر، وتعد بحق كشفًا لذات أخرى في فضاء اللغات والثقافات، ومن هنا فإن الأنا أو الذات لها ارتباط بمجموعة من الأسئلة الحيوية والجوهرية المتعلقة بحياة الإنسان وواقعه وأفق تفكيره، لا لشيء إلا لأن الآخر ليس بعيدًا عن الذات، بل يسكنها ويلتصق بها، فهو المرآة التي من خلالها ترى ذاتها، فلا وجود للذات إلا في ارتباطها الوثيق وانفتاحها عليه، فهوية الذات لا تتحدد إلا من خلال هذا الآخر الذي يؤكدها ويجعلها قابلة للتحرر من الوهم والزيف.

وهذا التواصل والانفتاح بين الذات أو الأنا والآخر يتحقق عبر الترجمة التي تعمل على تقريب المسافات وإذابة الاختلاف الموجود بين لغات وثقافات العالم. ومن هنا تصبح الترجمة بمثابة إضاءات لمعتمات ذواتنا، ونبراسٍ يضيء المهمَّشَ والمخفي من ثقافتنا.

وفي هذا السياق فكم من نصوص ومعارف في ثقافتنا لم نتعرف عليها إلا بعد معرفتنا بثقافة الآخر الذي يجعلنا ننتبه إليها ونعود إليها ونكتشفها وكأننا نراها أول مرة. فالترجمة تقذف بالذات من تقوقعها الضيق حول نفسها لتلتقي بالآخر في عراء الثقافات.

من هذا المنطلق أضحت الترجمة رحلةً في فضاء الثقافة المغايرة من أجل تملّكها والتفاعل معها، والتملّك يتطلب إدخال الآخر في الذات في سبيل اختصار المسافات بينهم، بل إنها وليدة الاختلاف والتعدد والتنوع، فلولا هذا الاختلاف والتعدد والتنوع ما كانت الترجمة ضرورية ولا ممكنة. فالترجمة تمثّل التحويل اللانهائي لتلك الثقافات واستيعابها في لغاتٍ

مختلفة، بل لا نبالغ في القول إنها إستراتيجية توليد الفوارق وإقحام الآخر في الأنا أو الذات.

وبناء على ذلك تصبح الترجمة علاقة حياة وانفتاح على الآخر، علاقةَ تواصلٍ بين الأنا والآخر، كل منهما يكتشف نفسه، بل والأكثر من ذلك تصبح الترجمة شكلاً من أشكال الحوار المثمر والفعّال بين الأنا والآخر، وشكلاً من أشكال التعارف الذي نص عليه القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣)، فالتعرف بوصفه قيمة إنسانية سامية، يذيب الاختلافات العرقية والدينية واللغوية والمعرفية. فما أحوجنا إلى مد الجسور ومعرفة الآخر وتأسيس قيم الحوار على أساس معرفي!

إن هذا التواصل لا يتم إلا من خلال نوافذ الترجمة التي تتفتح من خلالها الأنا على الآخر في علاقة يسودها التفاهم والود والحوار. وهنا لا بد من الإشارة إلى حقيقة مهمة وهي أن الأمر لا يكمن فقط في أن نقرّ ونعترف بانتمائنا إلى نظام اجتماعي فكري معين، وما يقتضيه هذا من التزام بمعايير وقواعد هذا الإطار، بل أيضًا يكمن في المقارنة الدائمة بين الذات والآخر، بين إطارنا الاجتماعي الفكري وغيره من الأطر الاجتماعية والفكرية.

جدل التواصل الثقافي بين الأنا والآخر

لعله من الأهمية بمكان التأكيد على أن التواصل بين البشر قديمٌ قِدَمَ وجودِ البشر على الأرض، وكثيرًا ما أدى هذا التواصل إلى التعارف مع الآخر، وحلِّ النزاعات والخلافات.. ومن هنا لكي يكون هناك تواصل مع الآخر المختلف عنه لغويًّا وثقافيًّا ودينيًّا؛ فلا بد أن تكون هناك ترجمة أو ترجمات مفيدة وفاعلة، وذلك رغبة من الشعوب للتعريف بأنفسها وثقافتها ودينها سعيًا وراء التواصل الجاد، لأننا في هذه الظروف الراهنة التي يعيشها العالم، في أمس الحاجة إلى التعرف على الآخر، وفهم آليات تصوّره للشخصية العربية، كما أننا -والقدر نفسه من الضرورة- بحاجة إلى فهمنا للآخر فهمًا عميقًا، لننقل إليه أفكارنا وأدبنا، وأسس ديننا وعقائدنا التي لا تجعلنا بدوًا خارج سياق العصر

إن الترجمة سوف تظل هي الأداة الفعالة والوسيلة الأساسية في صنع التفاعل والتواصل بين الأنا والآخر، فمن خلالها تتعرف الذات على الآخر المختلف عنها ثقافيًّا ولغويًّا، ويتحقق التفاعل وتكتشف الذاتُ الآخرَ، بل تكتشف نفسها أيضًا

الذي نعيش فيه، بل جزءًا أساسيًّا منه، فالترجمة أضحت جسرًا للتواصل بيننا وبين الآخر المختلف عنّا عقائديًّا ولغويًّا وثقافيًّا.

ولعلنا نشير هنا ونلفت الانتباه إلى أنه لتسهيل أمر هذا التواصل بيننا وبين الآخر وبين الثقافات المختلفة؛ لا بد من وسائل فعّالة لعل من أهمها تعلُّم لغة الآخر، أي تعلم اللغات الأجنبية، وهي وسيلة فعّالة لبناء جسر من التواصل بين البشر، وأهم أداة لتفعيل تعلّم اللغة هي الترجمة التي تنقل معارف وثقافات الآخرين. فالترجمة هي حاضنة للثقافة ووسيلة للتأثير في العقل البشري، ومن هنا يتحقّق التفاعل المثمر بين الأنا والآخر.

صفوة القول: إن الترجمة سوف تظل هي الأداة الفعالة، والوسيلة الأساسية في صنع التفاعل والتواصل بين الأنا والآخر، فمن خلالها تتعرف الذات على الآخر المختلف عنها ثقافيًّا ولغويًّا، ويتحقق التفاعل وتكتشف الذاتُ الآخرَ، بل تكتشف نفسها أيضًا..

يجب أن نشجع الترجمة في وطننا العربي، لأنها سوف تنقل لنا معارف الآخرين، ونتعرف على فكر وأفكار الآخرين، وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، كي نعيشَ في سياق عصرنا ولا نتخلّف عن الركب الحضاري، بل يتحقق التعارف والتواصل والتلاقح الفكري بين الحضارات كلها، في إطار من الحوار والقيم الموضوعية، التي تحقق العيش المشترك والعيش في سلام، بدلاً من الصراع والتناقض والتناحر والتعصّب. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiragate.com

محمد زغلول عامر*

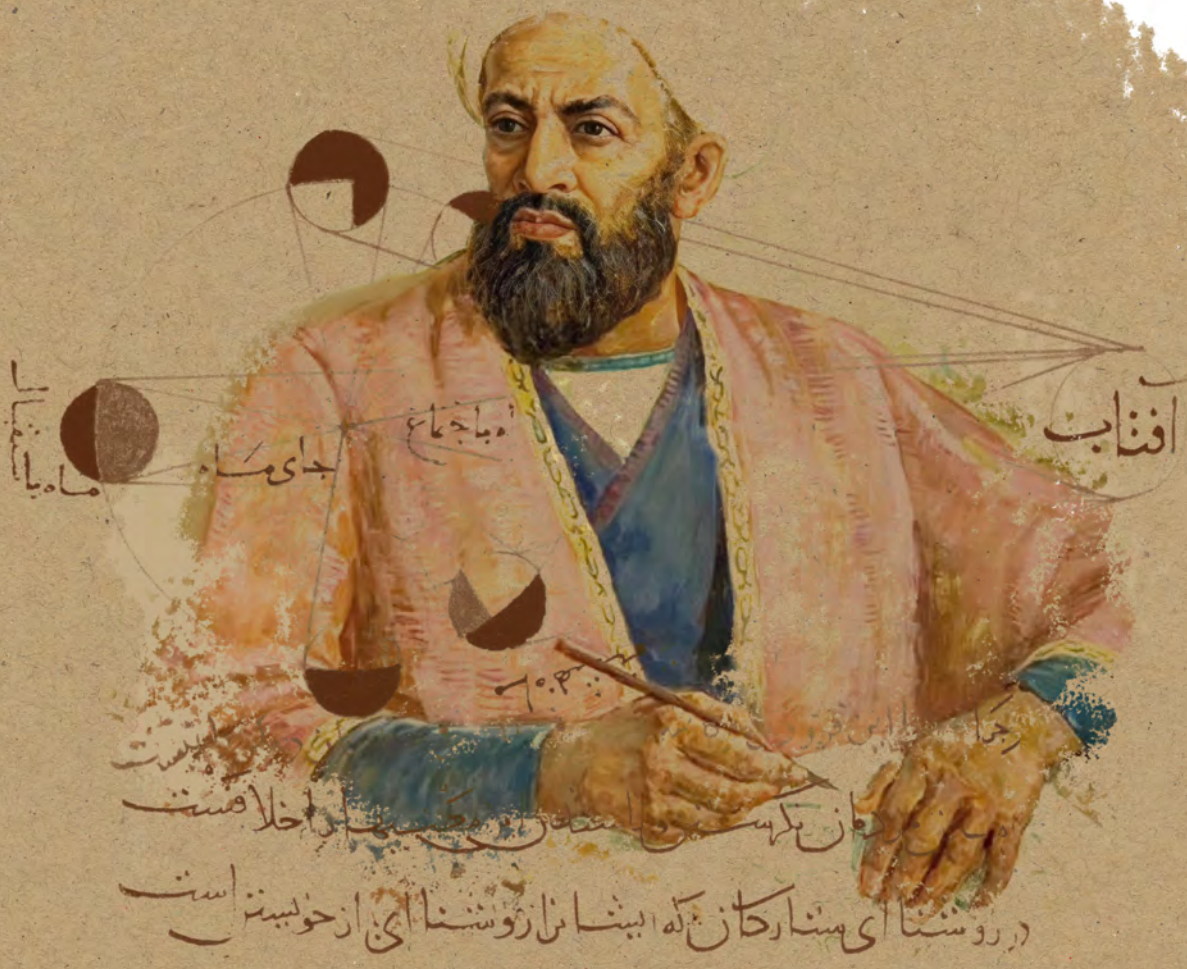

البيروني وهندسة الكون

يعدُّ أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني أول مَن أصل للبعد الكوني للعلوم الهندسية، مما أدى لتأصيله علم الهندسة الفراغية المهم والحساس، الذي تقوم صناعات "الهاي تك" حاليًا على أساسه المتين. فقد كان البيروني هو واضع قوانينه الأساسية الخمسة عشر، التي انبثقت عنها في عصرنا تقنية الأبعاد الثلاثية، وهي البسيطة في تصوراتها العامة ولكنها المثمرة في نتائجها الملموسة حاليًا. فلولا تلك التقنية التي طورها البيروني في القرن الرابع الهجري، لما تمكنا من صناعة الشاشات العملاقة المعروفة بـ"سينما البعد الثالث"، وأيضًا تحقيق الدقة في أجهزتنا الحاسوبية (الكمبيوتر) التي يعتمد ضبط شرائحها وتخزين المعلومات فيها على المعادلات الرياضية التي وضعها البيروني منذ ألف عام.

تميزت أبحاث البيروني بجمعها بين المعرفة بالعلوم الرياضية والجغرافية، والمزج بين هاتين الطائفتين من العلوم، بما أدى لنجاحه في قياس قُطر الكرة الأرضية، وأيضًا في اكتشاف علم الأنثروبولوجي "علم صفات الأجناس البشرية"، الذي وضعه البيروني على أساس دراسة تأثير الأشعة الكونية على صفات البشر الخِلْقية والخُلُقية، حيث اعتمد التقارب الذهني والجسدي بين الأجناس المختلفة التي تقطن شبه القارة الهندية، على أساس أنها تجتمع في بيئة جغرافية واحدة بما يخلق تقاربًا بينها رغم اختلافها العرقي.

وقد يستوقفنا ذلك الربط بين الجغرافيا والرياضيات، بل وبين الإشعاع الكوني والأنثروبولوجيا، حيث تبدو تلك العلوم بعيدةً عن بعضها في ذهننا المتأثر بالنزعة العلمية الأوروبية، ولكن تصور النزعة العلمية الإسلامية الأصيلة سيكشف أنه لولا إلمام البيروني بعلمي الرياضيات البحتة والجغرافيا، ما تمكن من قياس قُطر الكُرة الأرضية قياسًا أقرب إلى الدقة، ولولا إلمامه بتركيب الهواء الذي هو الغلاف الجوي ما تمكن من تمييز الأشعة الكونية المعروفة الآن بالأشعة فوق البنفسجية، التي يتعاظم تأثيرها في شبه القارة الهندية ذات المناخ الحار، بما يؤدي لصهر الأنثروبولوجيات المختلفة التي تعيش في الهند في إطار التأثير المناخي الكبير للأشعة فوق البنفسجية "الكونية" الحارقة، التي كان للبيروني" السبق في اكتشافها بتحليله ضوء الشمس بواسطة جهاز التحليل البصري الذي ابتكره "الحسن بن الهيثم".

اعتبر البيروني أن مهمته تتلخص في تحليل الظواهر الكونية المعقدة لأجل الارتقاء بحياة الناس، وكان لقياسه الدقيق لقُطر الأرض الأثر الأكبر في رسم الخرائط الملاحية، حيث إن كل الخرائط الملاحية حتى عصرنا الحاضر ترتكز على القياسات الدقيقة لقُطر الأرض التي وضعها "أبو الريحان"، كما أدى تحليله الدقيق لضوء الشمس وإشعاعاته المختلفة لنشأة علم الأرصاد الجوية، الذي ترتكز عليه علوم الفلاحة، وتحديد صلاحية المناخ لزراعة محصول معين. ومعلوم أن الأشعة فوق البنفسجية التي اكتشفها البيروني، ضرورية لإنضاج ثمار

انطلق البيروني في تأسيس علومه من التصور الإسلامي الكوني للحياة، وكان تأسيسه للهندسة الفراغية يقوم على تصور وجود جسم كوني له مدار محدد، وهو التصور الذي قاده لتأسيس حساب المثلثات الذي يفيد حاليًّا في وضع تصاميم ناطحات السحاب.

المانجو، والكاكاو، والبن، التي لا تجود زراعتها سوى في المناطق الحارة. كما اكتشف البيروني أيضًا أن ذلك النوع من ثمار المناطق الحارة غني بالسعرات الحرارية، بما يفسر استهلاكها بشكل أكبر في البلاد الباردة، ومعلوم أن غالب ثمار الكاكاو وبذور القهوة تذهب حاليًّا إلى الشمال البارد، بينما لا يشرب أغلب سكان المناطق الحارة هذين المشروبين، وهو ما يؤكد شمولية رؤية البيروني الكونية، التي قادته لتأسيس علم الهندسة الفراغية، وجداول الأرصاد الجوية، وحساب المثلثات الذي أسسه حوالي عام ١٠٠٠م.

البيروني وعلوم الفلك

قد نتصور أن العلوم التي أسسها البيروني علوم لا رابط أو صلة بينها، ولكنه انطلق في تأسيسها من التصور الإسلامي الكوني للحياة، وكان تأسيسه للهندسة الفراغية يقوم على تصور وجود جسم كوني له مدار محدد، وهو التصور الذي قاده لتأسيس حساب المثلثات، الذي يفيد حاليًّا في وضع تصاميم ناطحات السحاب. ولكن البيروني في تأسيسه لذلك العلم كان يبحث في أشكال مدارات الأجرام السماوية، التي اكتشف بواسطة حساب المثلثات أن أغلبها يأخذ الشكل المثلث وليس الدائري كما هو شائع، بما قاده لاكتشاف المناظير الفلكية "التلسكوبات" المقعرة، وهو ما عُدَّ تطويرًا فعالاً للمنظومة البصرية التي ابتكرها "الحسن بن الهيثم".

وقد أدى تصميم البيروني للمنظار الفلكي المُقعر إلى اكتشافه الرؤوس المثلثة لمدارات الكواكب، وأيضًا اكتشاف الكثير من الأجرام السماوية الواقعة خارج المجموعة الشمسية، وهي الكواكب والنجوم التابعة

hiragate.com

لمجرة الطريق اللبني "درب التبانة"، التي تُعتبر المجموعة الشمسية جزءًا بسيطًا منها. ولم يكن اكتشاف البيروني لتلك النجوم والكواكب مجرد اكتشاف فلكي بحت، ولكن كثيرًا من اكتشافاته أدت لوضع أدلة الإبحار في البحار والمحيطات، وكان لاكتشافه النجم القطبي الشهير دورٌ كبير في تحديد أوقات السكون الاستوائي، وهي أوقات الربيع والخريف اللذين تسكن فيهما الرياح تمامًا في المنطقة الاستوائية بما كان يمنع الملاحة فيها قديمًا، حيث كان تواري ذلك النجم مقترنًا دائمًا بتوقف الرياح في المنطقة الاستوائية خلال الربيع والخريف.

وقد فسر البيروني ذلك بأن دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس كل أربع وعشرين ساعةً، هو ما يحدد ظهور واختفاء نجم معين في السماء، وأن النجوم تظهر

لنا إذا تلاقت أثناء دورانها مع كوكبنا الذي يدور بانتظام حول نفسه وحول الشمس. كما فسر البيروني سكون الرياح حول خط الاستواء خلال الاعتدالين وارتباط ذلك بالنجم القطبي، بأن ذلك النجم يسبح في مدار مثلث الشكل، وأنه لا يقترب أثناء سباحته من كوكبنا الذي يسبح في مدار دائري سوى مرتين في العام، الأولى بين يومي ٦ يناير و١٢ فبراير، والثانية بين ١٢ يونيه و١٧ يوليه، أي أن النجم القطبي لا يظهر لنا سوى في الصيف والشتاء فقط، وهما الفصلان اللذان يمكّن الملاحة خلالهما في البحار الاستوائية. وقد رسم الجغرافيون العرب بعد البيروني، خرائط ملاحية دقيقة للإبحار في المحيط الهندي والمناطق الاستوائية بناءً على أبحاثه حول النجم القطبي، الذي جعله الله ﷻ دليلاً لتسهيل الملاحة في المحيط الهندي، وهو طريق التوابل الذي يبدأ من موانئ الهند ويمر عبر البحر الأحمر ثم "مصر" إلى الأسواق الأوربية، حيث كانت تستعمل التوابل لحفظ اللحوم، التي كانت تشكل قديمًا مع البقوليات غذاءً للغني والفقير على السواء في أوروبا.

مخترعات البيروني

لم تقتصر اختراعات البيروني على الاكتشافات الفلكية والجغرافية التي أسست لعلم تقويم البلدان الجغرافيا، ولكنه كان أيضًا أول من صمم الروبوت بشكل يشبه شكله ووظيفته التي نعرفها عنه حاليًا. وكان تصميمه لـ"الروبوت" يقوم على إلمام كامل بأُسس الرياضيات وعلم المعادن. وقد صمم روبوتًا على شكل إنسان كان يقوم بتحميم السلطان "محمود الغزنوي" -سلطان الهند وما وراء النهر- اعتمادًا على اتزان ثلاثمائة معادلة رياضية، قام البيروني على أساس اتزانها بتصميم الروبوت، الذي كان يحوي ٢٠٠٠ ترس ويعمل بنظام الملء التروسي الذي كانت لُعب الأطفال المتحركة تعمل وفقه حتى وقت قريب.

ولم يكن اختراع البيروني للروبوت فخفخةً ينعم بها ذلك السلطان، ولكن ذلك الروبوت كان باكورة المنظومة الآلية التي تدير حياتنا الآن، حيث توصل البيروني للمعادلات الرياضية من الدرجة الرابعة، وهي المعادلات التي تمكن علماء أمريكان في أربعينيات القرن العشرين من ابتكار الكمبيوتر على أساسها، حيث إن ضبط سمك وأبعاد شرائح التيتانيوم التي تخزن المعلومات الداخلة لأجهزة الحاسب الآلي، لا يمكن دون المعادلات التي وضعها البيروني من منطلق إيمانه بقول الحق سبحانه: ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(الذاريات:٢٠-٢١)، ويبدو أن التلازم بين ما في الأرض وما في النفس من آيات أودعها الله تعالى فيهما كان أساس تفكير البيروني، الذي أدرك أن خلق الإنسان من تراب تلك الأرض يصنع تلازمًا بين اتزان الطبيعة البشرية واتزان البيئة المحيطة بالإنسان. وكانت "هندسة الكون" في نظر البيروني، تقوم

hiragate.com

على اعتبار ثلاثة مقومات تقوم الفيزياء الحديثة عليها حاليًا، وهي: التحديد الدقيق للمسافة، والتحديد الدقيق لقوى الجاذبية، والحساب الدقيق للوقت.

ويقينًا، فإن إلمام البيروني بعلوم الفلك كان له الدور الأكبر في وضعه لتلك الأساسيات الفيزيائية، كما كان تعيينه لمواضع الكواكب والنجوم السيارة، العامل الأكبر في تعيينه الدقيق لقطر الأرض وللأوقات الملائمة للإبحار.

آثار البيروني العلمية في عصرنا الحديث

امتد تأثير المنجز العلمي للبيروني حتى اليوم، فقد كان يدرك أن الأمر الوجودي لا بد أن يتوافق مع الأمر الشرعي، بمعنى أن القرآن العظيم لا يمكن أن يتعارض أبدًا مع الحقيقة العلمية التي تستخلص من واقع التجريب العلمي المحايد. وكان إدراك البيروني للتوافق بين الوجودي والشرعي هو ما أدى لتطويره القوانين الرئيسية الخمسة عشر للهندسة الفراغية، وهي قوانين التصور السليم لحركة الأجسام. وهي أيضًا القوانين الرئيسية لمنظومة الصناعات الرقمية في وقتنا الحالي، حيث إن تطوير رياضيين سويديين مؤخرًا لشريحة لا يتعدى قطرها ملليمترين، وتستطيع مع ذلك تخزين ملايين المعلومات قام على استيعاب القوانين الـ ١٥ المؤسسة للهندسة الفراغية التي وضعها البيروني. وهي القوانين التي اعتمدت الوقت والمسافة والجاذبية الأرضية عوامل محددةً لحركة أي جسم، كما أن اكتشاف البيروني لخصائص الحديد والنحاس، مكّن علماء المسلمين لاحقًا من صناعة سبيكة تجمع المعدنين وهي أقوى السبائك على الإطلاق، حيث صنع ثوار القاهرة خلال ثورتهم ضد الفرنسيين (أبريل عام ١٨٠٠م) المدافع في منطقة بيت القاضي بالقاهرة بسبك الحديد مع النحاس، مما أثار دهشة الفرنسيين الذين لاحظوا متانة المدافع التي صنعها الثوار، اعتمادًا على علم المسلمين المخزون منذ البيروني.

البيروني والمخترعات الحديثة

تعدُّ فلسفة "ليوناردو دافنشي "التصويرية نتاجًا مباشرًا لأبحاث البيروني "والحسن بن الهيثم" في الضبط الدقيق لزاوية الإبصار، التي تجعلك تشعر وكأن عين المرأة في لوحة "الموناليزا" ترمق فيك مهما اختلفت الزاوية التي تنظر إليها منها، وأيضًا في تقنية البعد الثالث التي تجعلك تتصور وكأن شخصًا يقف خلف الآخر في نفس اللوحة المرسومة ذات السطح المستوي، بل إن هاتين التقنيتين هما سر إبداعات "دافنشي" الفنية.

ولم تقتصر تطبيقات دراسات البيروني على اللوحات الفنية المنتمية لعصر النهضة الإيطالي وحده، ولكن آثار الهندسة البيرونية ماثلةٌ أيضًا في التلفاز، والشاشات المنزلية التي بني تصنيعها على "البعد الثالث"، الذي له الدور الأكبر في تطوير الـ"آي باد" بشرائحه المختلفة، على اعتبار أن "الآي باد" هو أساس أنظمة الحسابات البنكية والمراقبة الأمنية الشديدة الذكاء حاليًا، بما يجعل

من البيروني أبًا للتكنولوجيا الرقمية بمعناها الحالي، إذ إن "التكنولوجيا الرقمية" قامت على العمودين اللذين رفعهما البيروني، وهما اتزان المعادلات الرياضية من الدرجتين الثالثة والرابعة، وضبط وزن وأبعاد شريحة التيتانيوم التي ضبطها البيروني بين تروس الروبوت الذي صممه قبل ألف عام أو يزيد. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

المراجع

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة للبيروني.

(٢) القانون المسعودي للبيروني.

hiragate.com

محمد زين العابدين*

الحشرات في خدمة البشر

الحشرات، تلك الكائنات الدقيقة الجسم، العظيمة التأثير في كوكبنا. هذه الكائنات العجيبة الشديدة التنوع، قدمت خدمات جليلة للإنسان، بل لا غنى عنها لاستمرار الحياة على سطح الأرض. يؤكد الباحثون أنه لولا الحشرات، ما عاش الإنسان أكثر من بضعة أشهر، لأنها تلعب دورًا رئيسيًّا في توفير الغذاء، فهي تقوم بدورٍ رئيسي في تلقيح النباتات، كما تمثّل غذاءً للطيور والحيوانات، وتساعد على خصوبة التربة بتحليل مكوناتها بواسطة الحشرات التي تعيش في التربة كالخنافس والديدان، أو تحلل أجسامها فيها.

والحشرات من أكثر الكائنات قدرة على الصمود في أعتى الظروف، والانتشار في كل البيئات، والتكاثر بأسرع المعدلات.. حتى إن الباحثين عثروا على بعض أنواعها تعيش في آبار البترول على أعماق غائرة يصل معدل الضغط فيها إلى أضعاف ما يمكن أن يتحمله الإنسان. وهناك قدرات خاصة لبعض الحشرات؛ ففراشة "التنين" مثلاً -المعروفة باسم "أبو عماشة"- تستطيع الرؤية بزاوية ٣٦٠ درجة، والطيران للخلف بسرعة. وتتمتع الحشرة المسمّاة بـ"فرس النبي" بالقدرة على تحريك رأسها بزاوية ٣٦٠ درجة في جميع الاتجاهات، فتستطيع رؤية فرائسها من كل اتجاه. وللحشرات القدرة على حمل أثقال تعادل أضعاف وزنها، والنمل مثال واضح على هذه القدرة.

الانتشار الرهيب للحشرات

يقدر عدد الحشرات المعروفة في الطبيعة بحوالي مليون نوع. فالحشرات تتكاثر بمعدل رهيب، فبعض أنواع حشرة "المن" مثلاً تضع ما يصل إلى ٢٠ ألف بيضة خلال مدة حياتها. وكانت الحشرات في بدايات انتشارها على الأرض عملاقة وذات سطوة حتى إنه توجد بمتاحف التاريخ الطبيعي، نماذج من حشرات "الرعاش" العملاقة كانت تعيش في الأزمان الغابرة، وتشبه الطائرات المروحية الصغيرة.

الأمومة لدى الحشرات

من الجوانب العجيبة التي اكتشفها العلماء، إذ إن الكثير من الحشرات -بالرغم من بدائيتها- تمارس غريزة الأمومة بامتياز، وأُودعتْ هذه الغريزة الضرورية لاستمرار حياتها، والحفاظ على أنواعها. والمثال الواضح ما تقوم به شغالات نحل العسل، من إعداد "الغذاء الملكي" المكون من مزيج من العسل وحبوب اللقاح، لتغذية صغار يرقات النحل التي تفقس، وتغذية الملكة، ورعاية الصغار، والتهوية عليها بأجنحتها خلال اشتداد الحرارة.

كما تقوم حشرة "الحفار" باصطياد فريستها، ووضعها في الحفرة التي تضع فيها بيضها، حتى إذا ما فقس البيض وخرجت يرقات الحفار، تجد غذاءها في انتظارها، كما تحرس الحفرة التي تضع فيها بيضها. وتقوم خنافس "أبو العيد" بوضع بيضها في مجموعات صغيرة بجوار تجمعات حشرات المن، وعندما تفقس اليرقات، تجد بجوارها غذاءها الشهي من المن. وقد سميت "خنفساء الجِيَف" بهذا الاسم، لأنها تقوم بدفن جِيَف الحيوانات الصغيرة -كالطيور والقوارض- بالقرب منها، لتصبح غذاءً ليرقاتها فيما بعد. والأغرب أن خنفساء الجِيَف تفرز عصارات مضادة للميكروبات، لمنع نمو البكتريا والفطر على الجِيَف التي تدفنها، وعقب فقس البيض تزحف اليرقات نحو الجيفة، فيما يقوم الأبوان بتوفير غذاء مهضوم سلفًا لها، من خلال تحليل أنسجة الجيفة، ويتوليان الدفاع عنها من هجمات الكائنات المفترسة.

أصوات وإشارات في عالم الحشرات

هناك وسائل عجيبة للتخاطب والتواصل بين الحشرات. ولتوصيل رسائل معينة لإرهاب أعدائها، أو تحذيرها من غزو أعشاشها، فالكثير من الحشرات تصدر أصواتًا مميزة، مثل الرعَّاشات، والذباب، والنحل، والدبابير، والجراد، وبعض أنواع الخنافس.

وتستخدم بعض الحشرات أصواتها في استدعاء شريكها للتكاثر، من خلال نغمات صوتية معروفة بين الذكر والأنثى. وتقوم بعض الحشرات -كصراصير الحقول- بإصدار نغمات صوتية تحفز أفراد عشيرتها على التجَّمع. ويتواصل أفراد خلية النحل عن طريق لغة الرقص، حيث ترقص الشغالات فوق الخلية، لتخبر زميلاتها بمكان الأزهار، فالزاوية بين مركز الشكل الذي تتخذه في دوراتها فوق الخلية، وبين الخط العمودي، هي نفسها الزاوية التي تقع بين الشمس والمكان الذي توجد فيه الأزهار، وتعلم الشغالات منها الطريق الذي يجب أن تسلكه للوصول إلى مكان الطعام.

كما تتواصل الحشرات بلغة الإشارات الكيميائية، حيث تفرز إناثها نوعًا من الهرمونات، يعرف بالجاذبات الجنسية أو "الفيرمونات"، لجذب الذكور إلى التكاثر الجنسي، لذا فإن من وسائل الحد من الآفات الضارة استخدام ما يعرف بـ"مصائد الفيرمونات" لاصطياد هذه الآفات.

الحشرة المُتعبِّدة

ويطلق هذا الوصف على حشرة فرس النبي الصديقة للإنسان، والحقيقة أن اسمها اللاتيني "Mantis" بمعنى النبي، يشير في مختلف اللغات لصفة التعبُّد، وسبب التسمية هو طريقة ضمه ليديه المرفوعتين في استقامة مثل الفرس، وكأنه يتضرع إلى الله، ووقوفه أثناء ذلك في سكونٍ تام انتظارًا لفريسته، ويستخدم ساقيه الأماميتين المزودتين بأشواك حادة في التقاطها بسرعة البرق. وقد ألهم أسلوب فرس النبي في الانقضاض السريع المُحْكَم على فريسته الصينيين؛ لتطوير أساليب قتالية.

الحشرات بين الأضرار والمنافع: الشائع عن الحشرات لدى عامة الناس أنها شرٌّ يجب التخلص منه، وأنها جميعها آفات ضارة، لكن في الواقع هناك منافع

hiragate.com

عظيمة تسديها الحشرات للبشرية، نستعرضها فيما يلي:

أ- دورها في الحفاظ على الحياة: فمن منافعها العظيمة قيامها بنقل حبوب اللقاح التي تلتصق بأجسامها عند وقوفها على الأزهار، من الأزهار المذكرة إلى الأزهار المؤنثة، فتساعد على التلقيح الخلطي بين النباتات، ويقوم نحل العسل بقسط وافر من مهمة تلقيح الأزهار. وقد قال العالم "روبرت أينشتاين": "إذا اختفى النحل من كوكب الأرض، فلن يبقى للإنسان إلا سنوات قليلة للاختفاء بعده"، فنهاية النحل تعني نهاية تلقيح النباتات، فإذا انتهى النبات، انتهى الحيوان ثم الإنسان". لكن الإنسان -للأسف- هو أكبر خطر يهدد النحل، لاستخدامه المفرط للمبيدات الحشرية؛ التي تقتل الحشرات بلا تفرقة بين الحشرات النافعة والآفات الضارة.

ب- القضاء على الآفات الضارة: إن بعض الحشرات النافعة تعيش كمفترسات أو طفيليات على حشرات أخرى ضارة، مما يساهم في الحد من تعداد الآفات الضارة. ومن أمثلتها حشرة "البمبلا" التي تتطفّل على ديدان اللوز القرنفلية، وخنفساء أبو العيد أو "الدعسوقة"، وحشرة "أسد المن"، اللتان تفترسان المن، والنطاطات، وغيرهما من الحشرات الصغيرة.

وتفتك حشرة فرس النبي بفرائسها من الجراد، والخنافس، والدبابير، والعناكب بين أرجلها الأمامية ذات الأشواك الحادة، ويمكن شراء بيض حشرة فرس النبي واستخدامها في الحدائق، للقضاء على الآفات الضارة بالأشجار والمحاصيل. وتُخلِّصُنا حشرة "أسد النمل" من أعداد كبيرة من النمل -غذائها المفضل- حيث تحفر يرقة أسد النمل حفرًا صغيرة في الأماكن الرملية برأسها القوي الذي يعمل كالجاروف، فيزيح رمال الحفرة على الجانبين، وتستخدم هذه الحفرة كفخ للإيقاع بفرائسها من النمل. والأغرب أنه بعد التهامه لوجبته الشهية من النمل، يقوم أسد النمل بتنظيف حفرته، وإلقاء مخلفات الوجبة خارجها.. لكن أكبر تحدٍ يواجه هذه الحشرات النافعة هو الاستعمال العشوائي للمبيدات، الذي يؤدي لانقراض مفترسات الآفات الضارة، مما يؤدي لانفجار في تعداد الآفات.

جـ- منتجات نحل العسل: فالعسل هو الغذاء الكافي الشافي، الذي يستخدم كعلاج للكثير من الأمراض؛ ومن استخداماته الشهيرة دهان الحروق للتعجيل بشفائها. كما أن الشمع الذي تفرزه شغالات نحل العسل يدخل في صناعة الأغذية، والأدوية، والبويات، والورنيش.. أما الغذاء الملكي فيستخدم لتنشيط حيوية الجسم، لغناه بالفيتامينات، والأحماض الأمينية. ويستخدم صمغ النحل (البروبوليس) الغني بمضادات الأكسدة، للتسريع بالتئام الجروح، والتخفيف من الالتهابات والقروح، وضبط نسبة السكر بالدم، حيث إن النحل يلصقه أصلًا بجوانب الخلية، لحمايتها من الميكروبات. ويستخدم سم النحل الموجود في آلة اللسع، بشغالة نحل العسل كعلاج للروماتيزم بعد استخلاصه وتنقيته.

د- إنتاج ديدان القز لمادة الحرير: وهو عبارة عن إفرازات الغدد اللعابية لديدان الحرير، التي تتصلب بتعرضها للهواء. ويدخل الحرير في صناعة المنسوجات غالية الثمن، والمُطرزات، والخيوط الجراحية، والمظلات، ويبلغ طول خيط النسيج الواحد الذي يكوّن شرنقة دودة القز ٣٠٠-٩٠٠ مترًا. ولعبت دودة الحرير (القز) دورًا هامًّا في تاريخ البشرية، فكانت وراء نشوء تجارة الحرير بين الشرق والغرب، وكان هناك طريق طويل لتجارة الحرير عُرِف بطريق الحرير.

هـ- إنتاج الأصباغ وأدوات الزينة: كثير من الأصباغ ومستحضرات التجميل، يتم استخلاصها من قشور الحشرات القشرية. وهذه الأصباغ تدخل أيضًا في تلوين المشروبات، والأدوية، ويدخل بعضها في دهان الأثاثات. ويستخرج حمض "التانيك" المستخدم في الصباغة ودباغة الجلود، من الأورام النباتية الناتجة عن بعض أنواع الحشرات. وأمدّت الحشرات الفنانين بالمواد اللازمة لعملهم؛ فتم استخدام مادة "اللك"، المشتقة من الإفرازات الراتنجية لأنثى حشرة "اللاك"؛ للمساعدة في إضفاء اللمعان على الزخرفة. وتقوم بعض الشعوب -كشعب "الزولو" في جنوب إفريقيا- بارتداء عقود كهرمانية متقنة من الحشرات المُصبرة في غلاف شمعي، أشبه بعقود اللؤلؤ الساحرة.

الفوائد الطبية للحشرات

للحشرات استخدامات عديدة في مجال الطب؛

hiragate.com

فبالإضافة للخواص الطبية العظيمة لمنتجات نحل العسل، هناك مادة "الكانثريدين" الموجودة في يرقات خنافس البثرات، التي تستخدم طبيًّا في استخراج أدوية مدرة للبول. والأغرب أن يرقات بعض أنواع الذباب المعقمة، تستخدم في علاج التقيّحات العميقة لقدرتها على إزالة الأنسجة الميتة المتقيحة. وكان المصريون القدماء أول من استخدم لسع الدبابير لمكان الورم لإزالة الاحتقان. وقد عُرِف لدى العرب قديمًا استخدام دودة "العلق" لعلاج ضغط الدم المرتفع. وهناك عدة أبحاث علمية تؤكد على فعالية المواد المستخرجة من حشرات بعينها في علاج بعض الأمراض، فمثلاً يفرز نوع من الخنافس مادة تساعد على علاج سرطان البنكرياس، وفي لعاب النمل مواد تساعد على تنشيط الدورة اليومية، ومادة "الفيكسين" الموجودة في الأغشية الخارجية لأجسام الحشرات أمكن استخدامها في إنتاج بعض المضادات الحيوية، ولكن يجب تقنين استخدام هذه المنتجات، ومراعاة القواعد العلمية.

١- منافع الحشرات في التحقيقات الجنائية: أمكن استخدام الحشرات دليلاً جنائيًّا على الجرائم التي مر عليها وقت طويل، فهناك علم قائم على الحشرات يعرف بعلم الحشرات الجنائي؛ نشأ في الصين عام ١٣٢٥م عندما قتل شخص مزارعًا بمنجل، فقام زعيم القرية بطلب جميع المزارعين الذين لديهم مناجل ووضعها على الأرض، وسرعان ما التفت الحشرات الطائرة حول المنجل المستخدم في الجريمة، وهذه الحشرات الطائرة هي الذباب الأزرق، فمع أن القاتل قام بتنظيف المنجل جيدًا، إلا أن الذباب يستطيع شم رائحة دم القتيل الذي تغذى عليه الذباب الأزرق، وتبدأ الحشرات حياتها على الكائن الميت بعد موته بثوانٍ معدودة، حيث يظهر الذباب الأزرق الذي يقوم بوضع البيض داخل الجثة، وأمكن تحديد وقت القتل، بتقدير دورة حياة الحشرة، بواسطة معرفة نوعها (يرقة أو دودة أو ذبابة).

٢- في مكافحة تجارة المخدرات والكشف عن المتفجرات: يتمتع النحل بحاسّة شمّ عالية بشكل مشابه للكلاب البوليسية، وقد أثبت العلماء أن النحل استطاع في معظم التجارب التمييز بين الكوكايين والهيروين.. فيمكن للشرطة استخدامه في نقاط التفتيش. كما أجرى العلماء أبحاثًا تسمح للجراد بالكشف عن المتفجرات باستخدام حاسة الشم القوية جدًّا لديه، ويقول العلماء إنه بتزويد الجراد بوشم حراري، فإنه يرشدهم إلى المناطق الخطيرة والمعزولة.

٣- الحشرات باعتبارها غذاء للإنسان والحيوان: لعله من أغرب استخداماتها، ففي كثير من مناطق العالم تستخدم كأطعمة بشرية، وتوضع في قوائم الكثير من المطاعم. ومن المعروف أن الجراد يستخدم طعامًا -خصوصًا في المناطق الصحراوية- ومنها بعض بلاد الجزيرة العربية، حيث يتم جمعه وشيُّه. كما يعتبر النمل الآكل لأوراق النبات، من أكلات التسالي في كولومبيا بأمريكا اللاتينية، حتى إن الأهالي يتسلون بأكله كالفشار في دور السينما، ويجمع الأستراليون نوعًا من الفراشات الكبيرة، ويقلونها أو يشوونها.. وما زال القرويون بالعراق، وإيران، وتركيا يجمعون الندوة العسلية الناتجة عن حشرة المن، ويستخدمونها في إعداد الحلوى. وتنتشر في أرض سيناء الحبيبة نباتات "الطرفة"، التي تصاب بالحشرات القشرية مثل المن، التي تمتص عصارتها. وينتج عن هذا سيلان كميات هائلة من العصارة على سطح النبات، وتجمدها خلال ساعات الصباح الأولى الباردة.. وكان بدو سيناء يجمعون هذه الندوة العسلية، ويبيعونها لرهبان الأديرة، الذين يبيعونها بدورهم للسائحين من زوار الأديرة، ويطلقون عليها "خبز الله"، ويأكلونها تبركًا بها.

وهذه "الندوة العسلية" يصفها بعض العلماء والمفسرين بأنها المن الذي أنزله الله على بني إسرائيل غذاءً لهم. وأثبت العلماء بتحليلها، احتواءها على المواد الكربوهيدراتية التي تمنح الإنسان الطاقة. وتشكل أطباق الجراد، والصراصير، والديدان جزءًا من قوائم الطعام في عدة دول آسيوية ولاتينية. ولعلنا لا نستغرب بعد هذا، أن تقارير منظمة الأمم المتحدة للأغذية والزراعة (FAO) شجعت على الاستعاضة بالحشرات عن العجز في اللحوم الحيوانية بالمناطق الفقيرة من العالم. ■

(*) كاتب وأديب مصري.

hiragate.com

قطوف
فتح الله كولن

الصبر الفعَّال

إن أمة محمد ﷺ هي خير أمة أُخرجت للناس، وقد ربط الله ﷻ وصف الخيرية هذا بصفتها آمرةً بالمعروف ناهيةً عن المنكر إلى جانب صفة الإيمان، وبتعبير آخر ربطه بنشرها الخيرَ وحمايتها الناسَ من أضرار الشر. ومن هذه الناحية فإنه ينبغي للمؤمن إذا أراد تنشئة جيلٍ نموذجي قدوةٍ تغبطه حتى الملائكةُ؛ أن يساهم -بواسطة الأمر بالمعروف- في تحلية الناس بالفضائل والمحاسن، وأن يسعى -بواسطة النهي عن المنكر- إلى تخلية الناس عن الرذائل، ومنعهم مما استنكره واستحقره الله ﷻ ورسولُه ﷺ والعقلُ السليم والطبيعةُ البشرية.

إن التحذير من الشرور والآثام، له سبل مؤطَّرة وقنوات خاصة وحدود واضحة، فيجب ألاَّ ننسى أن الموقف الواجب اتخاذه عند النهي عن المنكرات لا يكون موجَّهًا للشخص نفسه، بل للأوصاف السيئة الموجودة فيه، وبتعبير آخر، إن كل صفة سيئة، تُشبه فيروسًا يصيب البشر. والغاية الأصلية من النهي عن المنكر هي القضاءُ على ذلك الفيروس لا على حامله، حتى يستردّ الفردُ صحتَه وعافيتَه وأمنَه وطمأنينتَه مجددًا. لذا فإن المؤمن يقف في وجه الصفات الذميمة،

بل يعلن الحربَ عليها، لكن ينبغي له أن يكون رحيمًا إلى أبعد الحدود بمن يحملونها، ويستخدمَ تجاههم لغةً وأسلوبًا ليّنًا، لدرجة أنه يجب عليكم وأنتم تحذِّرون مرتكبي المنكرات مما يفعلونه، ألاَّ يَفطنوا إنْ كنتم تعارضونهم أو لا.

أجل، ينبغي لكم أن تتحركوا وتتصرفوا هكذا بأسلوب رقيق دقيق، حتى يتسنَّى لهم أن يتخلَّصوا سريعًا ودون وعي من تلك الصفات الذميمة التي يحملونها، ويخلعوها عنهم كما يخلعُون ملابسهم تمامًا؛ فالتصرف هكذا هو أحدُ ضروريات وثوابت السلوك والمنهج النبوي صلى الله وسلم على صاحبه.

وإن قابلْتم المواقفَ والسلوكيات السلبية بمثلها، فإنكم تضاعفونها أكثر بدلاً من أن تمنعوها، ولا سيما في عصرنا الذي تُضخُّ فيه السلبيات إلى الناس دائمًا؛ مما أدى إلى ممارستهم العديدَ من السلوكيات والتصرفات المنبوذة، وهذه مسألةٌ شديدة الخطورة.

إذن كونوا -كما وصف وأراد مولانا جلال الدين الرومي- شمسًا تلاطف الجميعَ شفقةً ورحمةً، وترابًا تدوسه الأقدامُ تواضعًا ولينَ جانبٍ، ومطرًا يروي النبات والشجر كرَمًا ومعونةً، وشجرًا نافعًا للآخرين ظلًّا وثمارًا، وليلاً يواري كل شيء سترًا للعيوب، وميّتًا بُعدًا عن الحدة والعصبية، ومحيطًا مترامي الأطراف تسامحًا وصفحًا.. كما ينبغي لكم أن تحافظوا على نفس الموقف لا سيما تجاه من بَعُدوا عنكم وانزلقوا في مجموعةٍ من الأخطاءِ والزلّات بسبب همزات الشياطين وإغواءِ النفس الأمارة بالسوء رغم أنهم يتجهون إلى نفس القبلة التي تتجهون إليها، ويسجدون معكم حيث تسجدون.

فيجب عليكم أن تَثبُتوا على موقفكم وتحافظوا على منهجكم معهم حتى وإن بَعُدوا هم عنكم؛ لأنكم إن بَعُدتُم عنهم شبرًا -كلَّما بعدوا عنكم شبرًا- تضاعفت المسافةُ وشَسَع البونُ بينكم، غير أنكم إن تَثبُتوا على موقفكم تُقلِّصوا المسافة بينكما، ويصبح هذا البعد خطأً قاصرًا عليهم دونكم، فلو أنهم ندِموا ذات يوم وأرادوا الرجوع، فإنهم لا يعانون كثيرًا في تلافي أخطائهم التي ارتكبوها، ولا يضطرون في سبيل تحقيق ذلك إلى استخدام جدلياتٍ وحُججٍ واهيةٍ مختلفة، فليس من الجيّد تضخيم الفتنة وتوسيعها، بل المهمُّ هو التصدّي لها بدرْءِ الفطنة والقضاء عليها.

قد يَعدُّ البعض اتخاذَ موقفٍ تجاه هذا النوع من الناس، أحدَ ضروريات حمايةِ شرفهم ومجدهم وعزتهم، غير أن مفخرة الإنسانية ﷺ تاجَ الشرف والمجد وقمّتَه، قد رجع خطوةً إلى الوراء في بعض المواقف الحساسة حين استدعى الأمر ذلك؛ مفكرًا فيما سَيجْنِيه من مكتسبات ومنافع لاحقًا.. وبهذه الطريقة علَّمَنا أن التراجُع قليلاً حين يقتضي الأمرُ ذلك، إنما هو من إستراتيجيات المسلمين. ■

(*) عقبات في سبيل الحق، دار النيل للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١٦، القاهرة. ترجمة: د. عبد الرازق أحمد.

أ.د. إبراهيم عبد الباقي أبو عيانة*

القلب محل الإيمان والتفكير

١

استوقفني رد الصحابي -الذي وصفه النبي ﷺ برجل من أهل الجنة- على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ عندما سأله كيف استحق هذه الدرجة؟ فأجاب: "ما هو إلا ما رأيتَ، غير أني لا أجدُ في نفسي لأحدٍ من المسلمين غِشًّا ولا أَحسُدُ أحدًا على خَيْرٍ أعطاهُ اللهُ إيَّاه" (رواه أحمد)، فما هذه العبادة الثمينة التي تؤهل صاحبها للجنة؟ إنها سلامة القلب من كل ضغينة وكراهية، أو غشّ، أو حسد، أو رياء.. فهي بذلك تدعم فرائض العبادة، وتكسوها بتاج الجائزة، وتكسب صاحبها صفة اليقينية بالله، فيتأهل للفوز بالجنة. ولم لا، وهو يحمل

صفات أهلها المبرئين من كل غل وحسد وكراهية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾(الحجر،٤٧).

ما دعاني للبحث في قوله ﷺ: "ألا وإن في الجسد مُضْغةً إذا صَلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله، ألا وهي القلبُ" (رواه البخار)، هذه المضغة التي لا يزيد حجمها عن قبضة اليد وتزن ٢٥٠ جرامًا تقريبًا وتُغذي٦٠ تريليون خلية، وتبدأ عملها بعد ٢١ يومًا من الحمل لتضخ ما يربو عن سبعين ألف لترٍ من الدم خلال مئة ألف انقباضة وانبساطة في اليوم الواحد، ولن أسهب في التفاصيل التشريحية ولا الطبية، لكن سأحاول أن أطوف مع القارئ العزيز حول آفاق إعجاز المولى ﷻ في هذه المُضغة.

استفتِ قلبك

لا ثوابت في العلم، فما ثبتت حجّته اليوم تأتي غدًا الحجة الأقوى لتثبت غيره.. وهكذا، فالاعتقاد السائد أن المخ هو محل التفكير والشعور والإحساس والإيمان والذاكرة، والخوف والجبن والشجاعة إلى غير ذلك، وأن القلب ما هو إلا مضخّة للدم.. قد تتغير هذه الثوابت في المستقبل القريب، ويُعلَن عِلميًّا أن القلبَ سيّدُ أعضاء الجسم، وهو محل التفكير والإدراك والإيمان والمعلومات والذاكرة، إلى غير ذلك من الوظائف التي صرّح بها القرآن الكريم والسنة المُطهرة في مواطن كثيرة.

إن أول ما يُخلق في الجسم البشري هو القلب، ومع تطوّر الجنين وتخليق المخ، يتبادلان الرسائل فيما بينهما هرمونيًّا وكهرومغناطيسيًّا ذهابًا وإيابًا، ويبدأ القلب في إصدار تعليماته للمخّ، ثم ما يلبث أن يرتبط بالمخ بشبكةٍ ضخمةٍ معقّدة من الأعصاب، من خلال قرابة أربعين ألف خلية عصبية في القلب تُشكل ما يعرف بـ"مخ القلب" (The Heart Brain)، الذي يتشكل من خلايا عصبية وبروتينات تعمل بشكل مستقل عن الأعصاب المخية (غير العقدة العصبية الموجودة أعلى الأذين الأيمن)، ولهذا المخ -الموجود بالقلب- القدرة على التعلم والتذكر والشعور والإحساس والخوف والإيمان.. هذه المعلومات وغيرها يرسلها القلب على هيئة إشارات

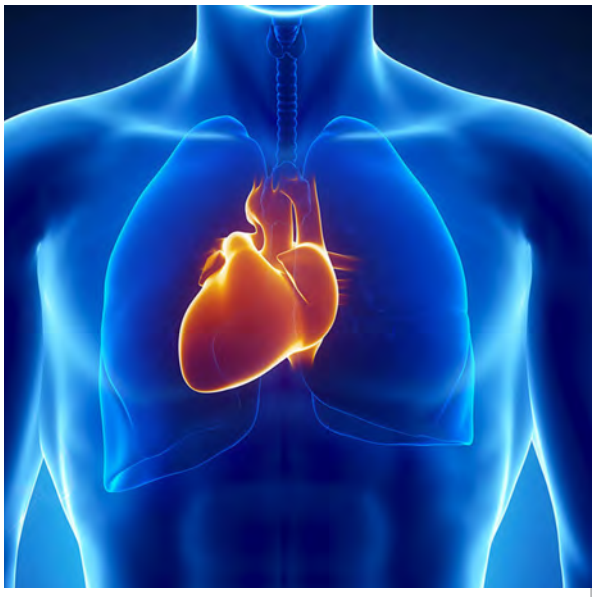

عصبيه إلى المخ (عكس ما اعتقد بعض العلماء أن المخ مُرسِل والقلب مُستقبِل)، تصل هذه الإشارات إلى الجهاز الوجداني في منطقة جذع المخ التي تؤثر فيه من خلال تأثيرها على الأوعية الدموية والغدد الصماء، وبالتالي تتأثر الأعضاء وتستمر الرسائل في رحلتها من القلب حتى يستقر بها الحال في المراكز العليا بالمخ، التي تستجيب من خلال الإحساس وتقدير الإشارات واتخاذ القرار بناءً على الخبرات المعرفية المتاحة لديها، فتقوم بتوجيه خلايا المخ للتفكير ومن ثَم للفهم والاستيعاب، مما حدا ببعض العلماء لدراسة علاقة القلب بالوظائف الإدراكية. ومن هنا فلا غرابة ولا عجب عندما يوجهنا ويرشدنا رسولنا الكريم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى بقوله "استفت قلبك".

وهنا تفرض بعض الأسئلة نفسها.. أَلِلْقلب عقل؟ أهو مركز التفكير؟ ألم يكن العقل أولى بالاستفتاء (استفت عقلك)، ربما ما سبق ذكره يعلل استفتاء القلب لا العقل، بل إن الدراسات التي قام بها معهد "رياضيات القلب" (Heart Math)، أثبتت أن القلب يبث موجات كهرومغناطيسية تؤثر على المخ وتوجه عمله، مما يؤثر على الإدراك والفهم لدى الإنسان، وبقياس النشاط الكهرومغناطيسي للقلب والمخ عند محاولة إدراك أو فهم مسألة ما فإن عملية الإدراك والفهم في المخ تتناسب مع أداء القلب، وكلما كان أداء القلب أمثل كان

hiragate.com

الإدراك والاستيعاب والفهم أمثل، والعكس صحيح.

فيزيائيًّا، ثبت أن مجال القلب الكهرومغناطيسي يُعد الأقوى، لذا فهو الأقرب للسيطرة على باقي الأعضاء، وبتسجيل هذه الموجات ظهرت في الشكل التالي الذي يمثل فيه المنحنى الأسفل موجات القلب الكهرومغناطيسية والثلاث منحنيات العليا رد فعل المخ كهرومغناطيسيًّا، وبالتدقيق نلاحظ كيف تتأثر ترددات المخ بحالة القلب ودقاته والموجات الناتجة منه، فكلما زادت عدد دقات القلب نتيجة سلامته، زادت الموجات والترددات الناجمة عن المخ وبالتالي تؤثر في كفاءة المخ وأدائه.

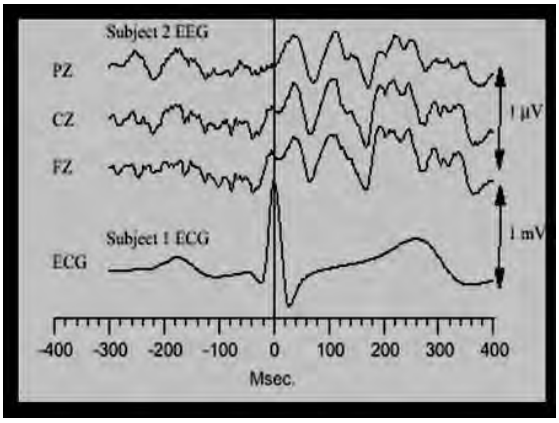

تأثير القلب (كهرومغناطيسيًّا) على المخ.

تآلف القلوب

إن القلب ليس محل الإدراك أو الفهم والتعقل فحسب، بل مركز العاطفة؛ فكلنا -العامة والمتخصصون- نعلم أن علاقة القلب بالعاطفة لا ريب فيها، والقلب عندئذٍ يوجه المخ لاختيار الأشياء، ما يروق له وما يشتهي، وما يحب وما يكره.. فله القدرة على أن يبعث ذبذبات تمكنه من التفاهم مع القلوب الأخرى، ويحتوي على معلومات يرسلها إلى كل أنحاء الجسم مع كل نبضة من نبضاته وانفعالاته فتزيد حمرة الوجه، ويتصبب الجبين عرقًا، وترتبك تصرفات الشخص فيتلعثم اللسان وتتداخل الكلمات.

وقد أكد ذلك ما توصل إليه علماء معهد "رياضيات القلب" أن المجال الكهربي للقلب أقوى ٦٠ مرة من نظيره للمخ، وأن المجال المغناطيسي للقلب أقوى خمسة آلاف مرة عن نظيره للمخ، مما يجعله قادرًا على التأثير على المحيطين بالشخص وقتما وأينما وجد، أي إن الإنسان يمكنه التواصل مع غيره من خلال قلبه دون أي تعبيرات لفظية. وهذا ما يفسر الراحة التي يشعرها الشخص عند رؤية شخص لأول مرة، بل يتوق للحديث معه، أو النفور من شخص يراه لأول مرة فلا يطيق قربه أو حتى رؤيته، وكذا يفسر الجاذبية Charisma التي يتميز بها الشخص فما هي إلا قوة قلبه التي تبعث موجاتها على الآخرين وتنعكس على سرعة بديهته وتفكيره.

هكذا أخبرنا العلم الحديث، ولكن سبقه حديث رسولنا الكريم الذي رواه البخاري بأكثر من ألفٍ وأربعمائة عام: "الأرواحُ جُنودٌ مجنَّدةٌ فما تَعارفَ منها ائْتلفَ وما تَناكَر مها اخْتلفَ"، ولكنه قال الأرواح وليس القلوب، ولقد ذهب بعض العلماء إلى أن الروح محلها القلب لكنها غير محسوسة، أي ليست مادية لكنها تسكن كل خلية من خلايا الجسم وربما يكون للقلب منها الحظ الأوفر والنصيب الأكبر.

القلب مركز الذاكرة

لم يتخيل أحد أن نقْلَ قلب الشاب "تيم" المتوفى، وزراعته في صدر "كلير سيلفيا" سيغير حياتها ويقلبها رأسًا على عقب، تشتهي الدجاج المقلي وتهوى المصارعة وتبتعد عن رقص الباليه الذي زاولته طوال حياتها، ماذا حدث لها؟ إنها أصبحت تشعر أن بداخلها شابًّا أكثر من فتاة. باختصار تلك صفات الشاب "تيم" التي تم استعادتها مع نبضات القلب الجديد في صدرها، ولم يخطر ببال أحد أن الطفلة المزروع بصدرها قلب الطفل المقتول، سترى الجريمة في أحلامها بالتفصيل وترسم صورة لمرتكب الجريمة مكانًا وزمانًا وكيفيةً، ماذا يحدث؟

إنها ذاكرة القلب.. فعند نقل قلب شخص "واهب" إلى آخر "مستقبل" فبمجرد الاتصال بين الخلايا العصبية بالقلب المنقول بالجهاز العصبي المركزي والمخ للشخص المستقبل عن طريق الألياف والموصلات العصبية تنتقل على الفور المعلومات المخزنة بها عن طريق الطاقة الموجودة بداخل خلايا الجسم التي

hiragate.com

hiragate.com

تحتوي على شفرة معلوماتية خاصة بصاحبها، وما يؤكد ذلك ما ثبت حديثًا، أن جينات الساعة البيولوجية تحتل خلايا الجسم ولا تتركز فقط في النواة فوق التصالبية.

والأكثر من ذلك أن بالقلب مركزًا مُختصًّا بالذاكرة تتركز خلاياه في الغشاء الرقيق المبطن للقلب (Perito-nitis)، وخلايا ذاكرة القلب تفوق خلايا الذاكرة في المخ عددًا وحجمًا. والغريب أن القرآن الكريم يخبرنا بذلك؛ فالآية الكريمة ١٩٧ في سورة الحج، تصف ذوي القلوب عديمة الفقه والتدبر من الإنس والجن بأنهم هم الغافلون، وهي إشارة واضحة لوظيفتين هامتين غير مألوفتين للقلب، وهما التفقه (أي الفهم والإدراك) والتذكرة، وهما مرتبطتان ببعضهما، فغياب إحداهما ينفي وجود الأخرى.

ثَبِّتْ قلوبنا على دينك

ألم يكن من الأجدر أن يكون دعاء الرسول ﷺ "ثبت عقولنا على دينك"، فالعقول محل التفكير والاختيار واليقين؟ فلماذا اختص القلب؟ إن القلب محل الإيمان واليقين بالله، وتتجلى هذه الحقيقة عندما يتبدل حال رجل من الإيمان للإلحاد بعد زرع قلب شاب ملحد بين ضلوعه، نوقن أن القلب محل الإيمان واليقين بالله. بل عندما تتحول سيدة شاذة إلى طبيعية تحب الخيرات وتستنكر الآثام والموبقات بعد زراعة قلب فتاة مؤمنة لها، نتيقن أنه ﷺ ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ومما سبق أود الإشارة إلى ملمحين، الأول شهادة أعضاء المرء عليه يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُو خَلَقَكُمْ أَولَ مَرَّةٍ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(فصلت،٢١)، أي أن الأعضاء تمتلك ذاكرة خاصة بها تسجل كل ما يحيط بها وتقترفه خيرًا أو غير ذلك، فهي في الدنيا مسخَّرة لصاحبها لا حول لها ولا قوة، ولكن في الآخرة لا سلطان عليها إلا لخالقها ولا تأتمر إلا بأمر الله، وحينها تنطق بما سجلت في ذاكرتها الخاصة. ولقد ثبت أن الذاكرة لا تُخزن فقط في المخ، ولكن في خلايا الأعضاء الداخلية مثل القلب وعلى أسطح جلودنا (Pert, Candace, ٢٠٠٢).

والملمح الثاني خاص بنقل الأعضاء، فها هي تتغير صفات الشخص وطباعه ومعتقداته وإيمانه وأفكاره وذاكرته، بل وآماله وطموحه وأحلامه بعد زرع عضو شخص آخر بداخله مثل القلب (وفق الدراسة المذكورة آنفًا). ونحن بذلك نشارك في طمس هوية إنسان ونستبدله بآخر وكأننا ننهي حياة المتلقي الفكرية والنفسية والإدراكية والإيمانية والشعورية، ونحيي الشخص المانح فكريًا وإيمانيًا وإدراكيًا ونفسيًا، لكن في وعاء المتلقي وهيئته الخارجية المورفولوجية والشكلية.

أخيرًا، فذكْر الله هو السبيل لإصلاح فساد القلوب وتنقيتها والسمو بها لمراتب الملائكة، والذكر يكون بالالتزام بأوامر الله وتجنب معاصيه، والتقرب إلى الله بالصدقات، وملء القلب بقرآن خالقه، وترطيب اللسان بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، فيصبح القلب مطمئنًّا سليمًا مما ينعكس على سلامة بقية أعضاء الجسم. ■

(*) أستاذ علوم الأعذية / مصر.

المراجع

(1) Pert, Candace, 2002: Why do we feel the way we feel? The Seer. 3 Dec.

(2) Paul Pearsall, The Heart's Code: Tapping the Wisdom and Power of Our Heart Energy, New York, Broadway Books, 1998.

(3) Linda Marks, The Power of the Soul-Centered Relationship, Heart Power Press, 2004

(4) Does your heart sense your emotional state? www.msnbc.msn.com, Jan.

hiragate.com

د. ناصر أحمد سنه*

اللغة العربية العلمية
وصل ما سبق

من صور تكريم الإنسان على سائر المخلوقات مقدرته على استعمال اللغة وتطويعها في التعبير والتواصل، والتعليم والتعلم، وفي شتى مناحي الحياة. فاللغة حياة، وحياتنا لغة، ولغتنا العربية مجدُنا وشرفنا، المعبرة عن ثقافتنا وحضارتنا. وهي ديوان آدابنا، ووعاء علومنا، ومنطق أفكارنا، وترجمان مشاعرنا، وسبيل تواصلنا واجتماعنا. ولا تستقيم حياتنا وثقافتنا وفهمنا لتراثنا الضخم، ومسايرة علوم عصرنا إلا بها. ولقد شَرُفنا بالنطق بها، والانتساب إليها، وقد جعلها الله تعالى لغة كتابه الخاتم، فهي باقية خالدة بخلوده، ناضرة محفوظة بحفظه. وهي من أكثر اللغات السامية تحدثًا (٤٢٢ مليون نسمة)، ومن أكثر اللغات انتشارًا.

ولقد استمرت اللغة العربية لغة العلم الأولى في العالم لأكثر من سبعة

قرون، واستوعبت طرائق البحث العلمي واصطلاحاته، ومقالاته وأدواته ومبتكراته، واحتكرت مؤلفاته وتصنيفاته وتقنياته.. والمتتبع لتراجم علماء حضارتنا العربية الإسلامية الأفذاذ -حتى الأعاجم منهم- الذين أبدعوا في شتى تصانيف العلوم ومناحي الحضارة، يجد لديهم معلمًا بارزًا، أنهم اغترفوا من اللغة العربية، وصاغوا بها عبقريتهم العلمية المتشعبة في الفلك والرياضيات، والكيمياء والصيدلة، والطب والجراحة، والتاريخ والبلدان، والفلسفة والكلام.. ولمَ لا، وقد فتح لهم القرآن الكريم (كتاب الله المسطور) منذ أول كلمة فيه (اقرأ)، أبواب القراءة والتعلم والنظر والتفكر والتدبر والتعقل والتذكر في "الآيات الكونية" المتعلقة بـ"كتاب الله المنظور" وفي الأنفس البشرية سواء بسواء.

كما أعطت كثير من المفردات القرآنية إشارات هادية، ومعارف متراكمة، ودلالات متنوعة، ومفاهيم شاملة تفتح أبواب علوم تجريبية وإنسانية متعددة، ومن أمثلة ذلك ألفاظ الفتق، الرتق)، موسِعون، الآفاق، البروج، الطارق، النجم، الضياء، النور، الرجع، التكوير، الانكدار، مرج، الماء، الرواسي، أوتادًا، زوجين، المحيض، نُطْفَةً، عَلَقَةً، مُضْغَةً، العِظام، لَحْمًا، السمع، الأبصار، زكاها، دساها، بعوضة، النمل، النحل، البقر، الإبل، الغنم، المعز، الخيل، البغال، الحمير، الفيل، الخنزير.

وحديثًا، يدّعي بعضهم "عجز اللغة العربية عن مسايرة ركب العلوم، ودولاب التطور"، و"عقمها" عن التواصل مع روح العصر، فيرد عليهم شاعر النيل "حافظ إبراهيم" في قصيدته "اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها":

رموني بعقم في الشباب وليتني
عقمت فلم أجزع لقول عُداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي
رجالاً أكفاءً وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية
وما ضقتُ عن آيٍ به وعظاتِ
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةِ
وتنسيق أسماء لمخترعاتِ
أنا البحرُ في أحشائه الدُر كامنٌ
فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

مقارنات

في وقتنا الحاضر تقاس قوة الأمم بقدرتها على مواكبة الثورة العلمية والتقنية المعاصرة، ولا شك أن تقليد العلم أو استيراده أو تطبيع تقنياته لا ينشئ حضارة راسخة، فضلاً عن أن يداوي عللها، ولعل ذلك التقليد يصنع "مدنية مادية" و"فلكًا استهلاكيًا" تابعًا ومرتهنًا للآخر، لا سيما في مجال اللغة مادة التفكير، وعصب الإنجاز والابتكار، بجانب كونها وعاء التعليم، والعلوم، والمعارف. إذن كل أمة تقدر نفسها، وهويتها، وتاريخها، وحضارتها تُدرس علومها بلغتها. وإن معظم دول العالم المتقدم -وبالأخص ١٩ دولة في صدارة العالم تقنيًا- تُدرس علومها، وينتظم بحثها العلمي بلغاتها الأصلية القومية، ولغاتُ شعوب دول النمور الآسيوية -جنوب شرق أسيا- من يابانية، وصينية، وكورية، وهنديّة.. شاهدة على ذلك.

ويخلق التعليم بلغة أجنبية عند الإنسان "ازدواجية في شخصيته"، وينقطع عن ثقافته الأم، بينما يوفر التعليم باللغة الأم الكثير من الجهد الذي يُهدَر على فهم النص الأجنبي، ويوجه الجهود إلى فهم المادة العلمية نفسها، وأن اللغة العربية قادرةٌ على استيعاب العلوم الحديثة، وأن المفاهيم العلمية الأساسية أكثر ثباتًا.. ولغتنا العربية من أغزر اللغات مادة، وأطوعها تأليفًا، وأيسرها نهجًا في التعليم والتعلم، يتم تعلمها استماعًا واستعمالاً، قراءة وتخاطبًا، فتصير لسانًا عربيًا فصيحًا. إنها كلٌّ متكامل، إرث ثمين لنا كما كانت ملكًا لأسلافنا، وهي عصيّة على العقم والجمود، لكن ينبغي التصرف بها ومعالجتها تصرُّف العاقل والواعي المحب المخلص، بلا مسخ لها أو تبديل لهويتها أو حَجر على مستخدميها، أو قتل لها بالتشدد والجمود تارة، أو بالتحنيط والجحود تارة أخرى، أو بالتراخي والإهمال.. وتلك ثالثة الأثافي.

الحاجة إلى التعريب والترجمة

التعريب غير الترجمة، فالترجمةُ هي "نقلُ معنى وأسلوب من لغة إلى أخرى"، بينما التعريبُ هو "رسمُ لفظة أجنبية بحروف عربية"، وهو ما يعرف بالإحراف أو الحَورفَة، والطريقةُ المتّبعة فيها هي الطريقة نفسها التي اتّبعها قدماءُ العربِ، أي كتابةُ الحروفِ التي لا نظيرَ لها في العربية بما

hiragate.com

يقاربها في النطق. ولا شك في أن الترجمة تساهم في إثراء لغتنا العربية، كما تغني علومنا وصناعاتنا، وتنمي طاقاتها، وتمدها بمفردات مستجدة، وترفدها بتراكيب جديدة، وبمصطلحات علمية وحضارية حديثة.. نحتًا، وتوليدًا، وتعريبًا، وترجمة، فتكثر معاجمنا، وتنمو ثروتنا اللغوية لنواجه حاجات العصر ومتطلباته.

وإن التعلّل بوجود علوم غربية نشأت في الغرب ولا تدرس إلا بلغات أجنبية مردود عليه بأن ترجمة هذه العلوم أفضل من التوسع في نشر لغتها بما يعيق الحفاظ على اللغة العربية وهوية الدولة. وأن التشدق بالألفاظ الأجنبية بصورة واسعة قد يهدد تلك الهوية، ويقدح في نقاء وشيوع لغتها.. وللترجمة في حضارتنا العربية الإسلامية شأن كبير ومُقدّر، منذ عهد "حكيم آل مروان" الأمير "خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان"، مرورًا بالخلفاء العباسيين "أبي جعفر المنصور"، و"هارون الرشيد"، و"المأمون" وإنشاء "بيت الحكمة" وما إلى ذلك.

اللغة العربية العلمية تراكمية

في مسيرة العلم والتحضر اعتمد المصريون على البابليين والسومريين والكلدانيين والفينيقيين، كما اعتمد الإغريق على المصريين، ثم اعتمد الرومان والهنود على من سبقهم من الإغريق وغيرهم.. وأخذ العرب والمسلمون عن كل هؤلاء، وهضموا وأضافوا، واقتبست أوروبا عن العرب وعن الذين سبقهم، وهكذا فالجهود العلمية الحضارية "تراكمية" وملْكٌ عام لمن يريد الاعتماد عليها والاقتباس منها بما يعود بالنفع والتقدم.

خذ مثلاً على ذلك: في بلاد الأندلس، بدأ العصر الذهبي للطبّ العربي خلال حكم الخليفة الأموي "عبد الرحمن الناصر" (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م). شكلت المؤلفات الطبية التي كانت ترد من دمشق وبغداد إلى الأندلس، أهم مصادر علم الطب في ذلك العصر، بيد أنه بمرور الوقت وبذل الجهد العلمي التراكمي، نشأت في الأندلس مدرسة طبية وجراحية رائدة، من أبرز روادها "أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي" (٣٢٥-٤٠٤هـ/٩٣٦-١٠١٣م) من عباقرة وعلماء حضارة العرب والمسلمين في الأندلس، الذين أسهموا في تطوير علم وفن الجراحة وصنعة الصيدلة. ولم تنصب جهود "الزهراوي" فقط على براعته العلمية والطبية والجراحية، بل لقد انشغل بمشاكل اللغة والمصطلحات، ولم يكتف بالسير على نهج الأساليب التقليدية في التأليف والتصنيف، لذا فقد خلّف "ظواهر لغوية" تخصه دون غيره ممن ألف وصنف في مجالات طبية وكيميائية وعلمية. فمنذ بدايات التدوين العلمي وجهود المترجمين العظام في حضارتنا العربية الإسلامية، نرى إسهامات "الزهراوي" قد استوعبت "المنجز اللغوي/المصطلحي" السابق، وطوَّرَتْه وأضافت عليه وابتكرت واشتقت وطوعت المزيد من المصطلحات الطبية والجراحية.

وللتدليل "المقارن" على ذلك ينبغي الإلمام السريع بجهود من سبقوه، مثل "جابر بن حيان" (ت ١٨٩هـ) أبي علم الكيمياء، و"أبي بكر محمد بن زكريا الرازي" (ت ٣١٣هـ) أبي الطب وإمامه في الحضارة العربية الإسلامية، وجالينوس العرب. لذا شكلت كتابات "الزهراوي" واسطة العقد في التأليف الطبي العربي، فتواصلت مع تقاليد وأعراف سبقت، وأعطت أنموذجًا لأجيال لحقت على مستوى التعبير اللغوي فضلاً عن المضمون المعرفي.

كيف يمكن وصل ما سبق؟

تبدأ عوامل النهضة عند أي شعب بالاهتمام بالماضي وكشف حقائقه الحسنة وربطها بحاضره. وفي كل التجارب النهضوية يتم البدء بالأطفال عماد المستقبل، ومنظومتهم التربوية التعليمية، ويتم وضع غايات للعملية التعليمية بجوانبها الثلاثة المعرفية، والوجدانية، والمهارية، مع تأطير "معايير علمية عملية" لما يُقدم من مقررات دراسية تهدف لاستدامة ما لدى الأطفال من "فضول طبيعي"، و"دوافع للتعلم" مدى حياتهم كلها.

وتشكل تنمية قدرات التفكير الإبداعي، والحث الواعي على الافتتان والتعلم المستدام للغة والرياضيات والفيزياء والكيمياء والبيولوجيا، وجمع المشاهدات، وافتراض الاحتمالات، واستثمار المعلومات، وتحليل البيانات، ونقد النظريات، وحب الاستكشافات، وإيجاد أفضل حلول للمشكلات، وابتكار الوسائل لتحقيق

hiragate.com

الغايات، والولع بعلوم الرياضيات والحاسبات، وصولاً "للعقل المُبدع/الابتكاري".

وهذه العلميات المعرفية العقلية المعتمدة على معلومات سابقة مُخزنة لها خطوات وعلاقات، وقدرات، وأشكال، وأنماط.. فمن أولى خطواتها، العناية باللغة وإثرائها وإجادتها. فاللغة -مادة العقل وترجمانه- مجموعة من "العلامات" تعبر عن الأفكار وعمليات التفكير. فالتفكير في مجمله لغة، وكلما ازدادت حصيلة اللغة وزاد ثراؤها ازدادت عملياته كمًّا وكيفًا.

وكيف يتطور السلوك البسيط لدى أطفالنا، والذي مبناه ردود الأفعال إلى عقل وبيان وتثقف وتفكير وتأمل وعلم وتعلم؟ في هذا الصدد يتجاوز باحثون، أمثال "ستانلي أي جرينبان"، و"ستيورات جي شانكر" نظرية "نعوم تشومسكي"، القائلة بأن مهارات اللغة أحد مكونات عتاد المخّ الموروث، أو أنها "حتمية بيولوجية"، وبات التأكيد على أن "العلاقات العاطفية والانفعالية والتفاعلية بين الأطفال وبيئتهم لها الدور الأهم المولد للقدرة على ابتكار وإبداع الرموز، وعمليات التفكير، فالخبرات الحسية والذاتية للأطفال وتحولاتهما المتعاقبة تغدو أساسًا لكل من الفكر المنطقي التأملي الإبداعي، وأن هذه القدرات ليست جزءًا من عتاد المخ البشري الوراثي".

وإن تفعيل دور "اللغة العربية العلمية" يتطلب ضبط مناهج تعليم وتدريس اللغة العربية، وجودة كل جوانب العملية التعليمية والبحثية، وبنيتهما التحتية، واستثمار التعليم والتدريس بطريقة الوسائط المتعددة، الأكثر تشويقًا من الطرق التقليدية، ومن ثم إعداد المعلم الجيد الكفء من دور الحضانة حتى الجامعة وما بعدها، مع تنمية مهارات التفكير اللغوي الموضوعي الذي يعتمد الدليل المنطقي الرياضياتي التجريبي الإحصائي الاستنتاجي، وبالنظر إلى المعارف العلمية بشكل ديناميكي، ينبغي مواصلة تعريب التعليم والعلوم والمعاجم. ولا ينكر أحد ضرورة الإلمام باللغات الأجنبية -كلغات ثانية- للاطلاع على المستجدات وأحدث التقنيات.

إن إجادة لغات أخرى، للباحثين والمُختصين، ليتناولوا بدورهم الترجمة، وتعلم اللغات الأخرى إنما هي "فريضة"، فقد روى الترمذي في سننه، عن "زيد بن ثابت" قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود، قال لي: "والله ما آمن يهود على كتابي"، فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا له قرأت له كتابهم. وفي رواية عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: "إنه يأتيني كتب من ناس لا أحب أن يقرأها أحد، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية؟" أو قال: "السريانية؟" فقلت: نعم، فتعلمتها في سبع عشرة ليلة.

من المهم تحقيق التواصل بين جميع الباحثين العلميين الناطقين باللغة العربية عبر العالم، وتشجيعهم على استخدام اللغة العربية في كافة المجالات العلمية والبحثية، وذلك عبر خلق "شراكات بحثية، وإطلاق مبادرات" تركز على العمل الجماعي لإثراء ودعم اللغة، فضلاً عن زيادة المحتوى العلمي باللغة العربية على شبكة الإنترنت العالمية كمطلب مُلِحّ، مع توفير المادة العلمية التي تساعد الكتاب والإعلاميين على نقل وتوطين المعرفة الحديثة إلى الفئات العريضة من المجتمع، مع إشاعة مناخ يحث على التواصل بهذه اللغة في كل دواليب الحياة اليومية، وتقديرها واحترامها واحترام رموزها.

لقد آن الأوان لحمل مشاعل أنوار اللغة العربية العلمية مرة أخرى، مساهمين في قيادة الإنسانية كما فعل أسلافنا أول مرة، وذلك عبر تفعيل دورها في إحداث نقلة تعليمية وعلمية ومعرفية كبرى، مما سيعيد وصل ما انقطع من مسيرتها، يوم كانت العلوم والمعارف تتحدّث العربية، ويسطع نور شمسها على العالم كله. ولهذه المكانة التليدة تم الاحتفاء بـ"اليوم العالمي للغة العربية" في الثامن عشر من ديسمبر من كل عام. ومن المؤكد أن تكريس اللغة العربية باعتبارها وسيلة تعليمية، وتعريب العلوم ومراجعها، وتدقيق مُصطلحاتها، وتوابعها لهو في شرف اللغة العربية نذرٌ يسيرٌ، وليس بالشيء الكثير ولا الكبير. ولا شك أن هناك جهودًا حثيثة في سهول عالمنا العربي وروابيه، لغرس فسائلها وحوسبتها إلكترونيًّا، وتعهّدها بالرعاية والعناية، ولم يبق سوى مد خيوط العمل والأمل لكلِّ بانٍ وربان لنعيد هذا الأمر للصدارة بجدارة. ■

(*) كاتب وأكاديمي مصري.

hiragate.com

علوم

محمود بكر أبو خميس*

إنتاج النشا
من ثاني أكسيد الكربون

تمكن فريق بحثي تابع للأكاديمية الصينية للعلوم عام ٢٠٢١م من استخدام نظام كيميائي أنزيمي هجين لتحويل غاز ثاني أكسيد الكربون إلى نشا مصنع ذي كفاءة وفاعلية عالية، تجاوزت كمية النشا المنتجة من الذرة طبيعيًا بثمانية أضعاف ونصف في فترة زمنية تقدر بحوالي أربع ساعات فقط مقارنة بالنشا المتكون في الذرة في عملية البناء الضوئي عبر دورة

"كالفن"، التي تستمر لفترة تصل مائة وعشرين يومًا.

قبل التطرق للحديث حول هذه التقنية يجب أن نقف أولاً حول:

الأهمية الاقتصادية للنشا

يستخدم النشا في تطبيقات متنوعة، منها الصناعات الغذائية والشراب للإنسان، مرورًا بتغذية الحيوان، وتطبيقات الطب والدواء مثل تخفيض نسبة الجلوكوز وتحسين الحساسية للأنسولين، ثم التطبيقات الصيدلانية ومستحضرات التجميل، وتقنيات تخفيض الوزن، وتطبيقات امتصاص العناصر الثقيلة وصناعة الأوراق والتغليف، وتطبيقات الوقود الحيوي والبوليمرات.

والسؤال الذي يطرح نفسه، ما أنواع النشا وما الفرق بينها؟

قسَّم العلماء النشا إلى نوعين أساسيين وهما الأميلوز والأميلوبكتين، حيث يتكون الأميلوز من روابط ألفا جليكوسيدية فئة ١,٤، بينما يتكون الأميلوبكتين من روابط جليكوسيدية فئة ١,٦. والفرق أن الأميلوز يحمل روابط خطية، بينما يحمل الأميلوبكتين روابط متفرعة. والملاحظ في أغلب المحاصيل والنباتات المنتجة للنشا، أن كمية الأميلوبكتين في الغالب أكبر من كمية الأميلوز.

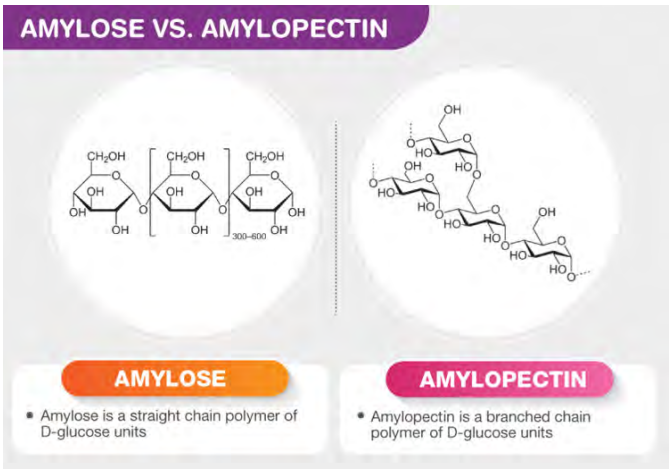

ولكي يتمكن القارئ الكريم من معرفة التقنية التي تناولتها الدراسة العالمية لإنتاج النشا المصنع، لا بد أن نتعرف أولاً على:

كيفية إنتاج النشا داخل النباتات

ينتج النبات النشا عبر عملية البناء الضوئي، حيث يحوّل ثاني أكسيد الكربون والماء الموجود بالتربة في وجود الشمس إلى غاز الأوكسوجين وسكر الجلوكوز.

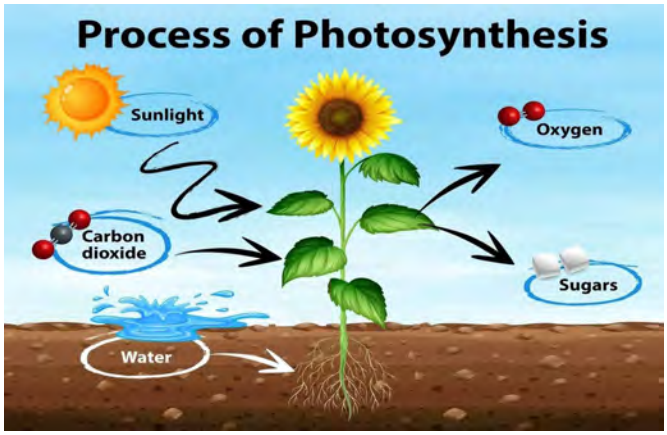

ويقوم النبات بإنتاج ATP, NADPH في فترة النهار عبر البلاستيدات الخضراء، ثم يحوِّل النبات ١,٥ Rubulose Biphosphate إلى Glceraldehyde-3-Phosphate، الذي بدوره يتحول إلى سكر الجلوكوز، والذي ينتج من خلاله النشا، ثم جزء آخر منها يكمل دورة "كالفن" مرة أخرى.

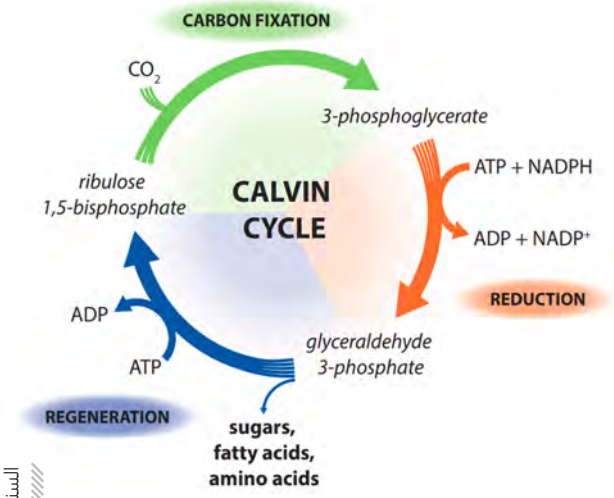

حيث يتحلل الماء الموجود بالتربة إلى ثلاثة عناصر رئيسية، هي الأكسجين الذي يخرج للهواء الجوي، ثم الإلكترون الذي ينتقل في ضوء الشمس من النظام الضوئي الثنائي إلى النظام الضوئي الأولي، ويتحد مع

hiragate.com

الفيروكسين مكونًا NADPH، ثم ينتقل عنصر الهيدروجين من الوسط الأكثر تركيزًا إلى لوسط الأقل تركيزًا في العلمية الأسموزية، ليتحد عنصر الهيدروجين بـADP، لينتج ATP كما هو موضح بالشكل.

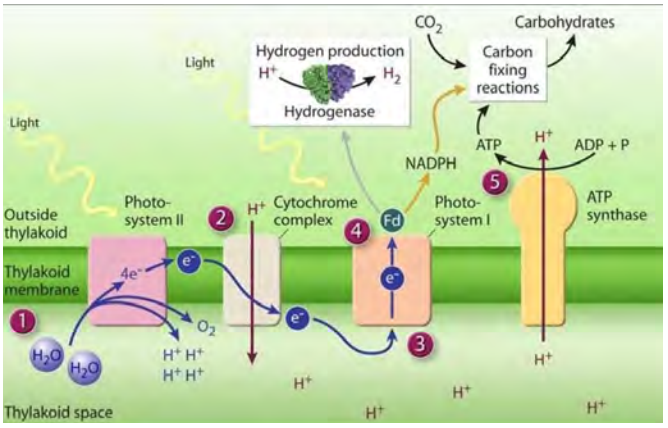

مقارنة بين إنتاج النشا طبيعيًّا وصناعيًّا

تعدُّ عملية إنتاج النشا طبيعيًّا عبر الخلايا عملية في غاية التعقيد، حيث تستغرق العديد من التفاعلات الكيميائية التي تصل لأربعة وستين تفاعلاً في فترة زمنية كبيرة قد تصل في الذرة إلى مائة وعشرين يومًا، مع قلة كفاءة النشا المصنع وتعقيده، بينما تنتج الأنظمة الهجينة (الكيموأنزيمية) النشا في فترة زمنية قدرت بحوالي أربع ساعات فقط، وبعدد من التفاعلات لا يتجاوز أحد عشر تفاعلاً، وذلك باستخدام ٢٢ نانو مول من CO_2/ دقيقة في وجود مليجرام من المادة الحفازة. ونجحت التجارب في إنتاج ثمانية أضعاف ونصف من النشا المصنع مقارنة بالنشا الطبيعي في الذرة.

كيف يتم بناء هذه الأنظمة الهجينة؟

يتم بناء هذا النظام الهجين باستخدام برامج الحاسوب، مثل البايثون، الذي يرشح للعلماء مسارات التفاعلات، وذلك في وجود عناصر وسيطة مثل Formic Acid, Methanol.

وذلك في عدة مسارات منها C1, C3, C6 مع قيام العلماء بعمل توليفات من الأنزيمات المختلفة، ودراسة نتائج الخلط على كميات النشا المنتجة كما بالرسم.

How they can build hybrid sytems ?

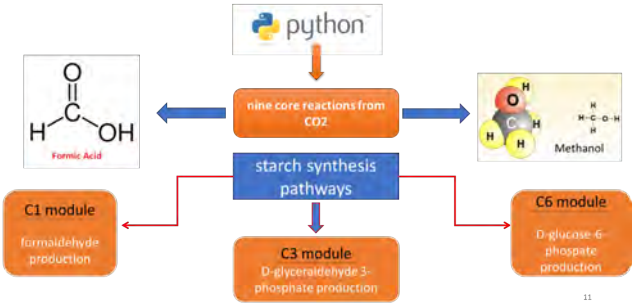

تمكن العلماء من تحويل ثاني أكسيد الكربون إلى عنصر الفورمالدهيد عبر المسار C1 Module في وجود الميثانول وأنزيم Aox، ثم تحويل الفورمالدهيد إلى GAP عبر مسار C3 Module في وجود tpi, dak, fls كأنزيمات، مما سهل زيادة إنتاج DHA وتقليل نسبة السمية في عنصر الفورمالدهيد. كما تمكن العلماء من تحويل GAP إلى G-6-p في وجود fbp, pgi عبر المسار C6 module، ثم ختامًا تحويل G-6-p إلى النشا عبر المسار Cn Module في وجود pgm, agp كأنزيمات. وبذلك نجحت تجارب العلماء في تحويل co2 إلى نشا مصنع في عدد من التفاعلات بلغ ١١ تفاعلاً فقط كما بالشكل التالي:

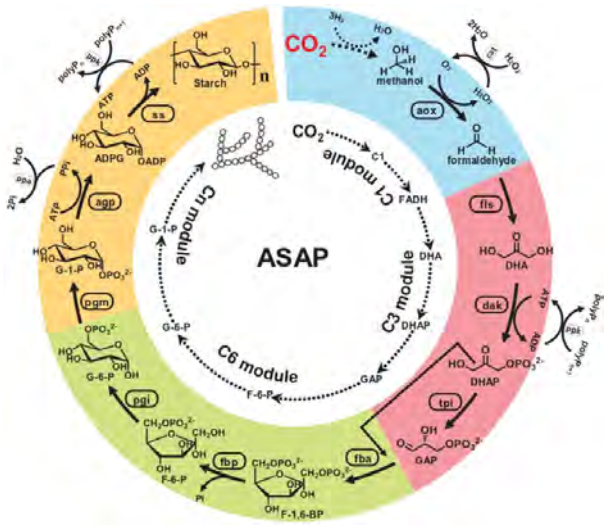

نتائج هذه الدراسة

لاحظ العلماء أن هناك تنافسًا بين DHA, dak، مما تسبب في حدوث تنافس بينهما أدى لتقليل إنتاج النشا على

الرغم من إدخال أنزيمات في التفاعلات مثل pgi, tpi, fba, fbp، عندما استبدل العلماء الـdak بأنزيم agp لاحظ العلماء زيادة إنتاجية النشا بشكل ملحوظ.

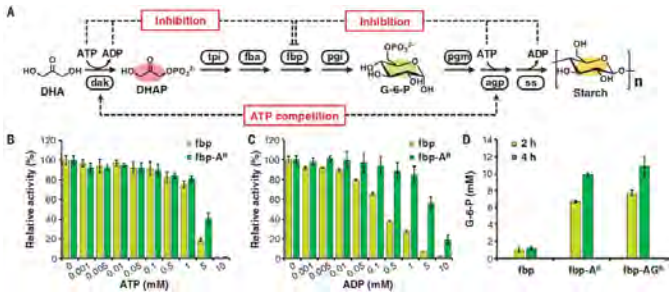

وتمر عملية تصنيع النشا بمرحلتين هما:

أولاً: المرحلة الكيميائية

تحدث هذه المرحلة داخل وحدة التفاعلات الكيميائية، وفيها يتم هدرجة غاز ثاني أكسيد الكربون في وجود ٢٥ جرام/ساعة من المخفز Zno-Zro2، وهنا يحدث تكثيف للميثانول بعد ساعة واحدة ليدخل وحدة التفاعلات الأنزيمية بمعدل ١٠٠ ملي مول.

ثانيًا: المرحلة الأنزيمية

وفيها يدخل الميثانول إلى وحدة التفاعلات الأنزيمية بالمعدل سالف الذكر، ليتم تحويله إلى DHA بواسطة أنزيمي aox, fls، وذلك بعد مدة زمنية تقدر بساعتين. وهكذا نجح النظام في وجود أنزيمات النظام الهجين في إنتاج الأميلوز بعد ٤ ساعات بمعدل ١,٦ جرام/ لتر وإنتاج الأميلوبكتين بمعدل ١,٣ جرام/لتر.

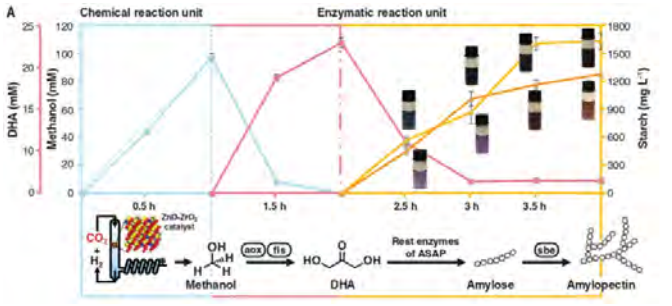

جودة النشا المصنع

لعل القارئ الكريم يتساءل: وماذا عن كفاءة النشا المصنع بواسطة هذه الأنظمة الهجينة؟

والجواب: إن العلماء قاموا باختبار النشا المصنع وعمل اختبارات الامتصاص الخاصة به باستخدام مادة الأجودين Iodine، ووجدوا تماثل النتائج مع النشا الطبيعي على حد سواء، وأن الفرق الجوهري هو اختلاف اللون، فالنشا الطبيعي يحمل اللون الأبيض، بينما النشا المصنع له لون بني محمر.

كما قام العلماء باختبار استجابة وحساسية النشا المصنع والنشا الطبيعي لجهاز Nuclear Magnetic Response، وأثبتت النتائج تماثل النشا المصنع بصورتيه الأميلوز والأميلوبكتين مع النشا الطبيعي بصورتيه الأميلوز والأميلوبكتين، مما يعكس فاعلية وكفاءة الإنتاج للنشا المصنع.

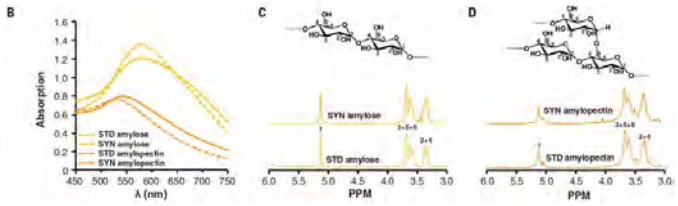

ما زالت بحوث العلماء مستمرة للحصول على نشا يصلح بأن يكون بديلاً للنشا الطبيعي، خاصة في عمليات الغذاء للإنسان والحيوان. وهذه الدراسة بلا شك فتحت الباب على مصراعيه، لاستخدام النشا المصنع في تطبيقات التصنيع الحيوي المختلفة. وما زال المستقبل يحمل الكثير والكثير حول الأبحاث المتعلقة بإنتاج النشا الصناعي عبر الأنظمة الكيميائية الهجينة. ■

(*) كاتب وباحث مصري، دكتوراة بجامعة وسط الصين الزراعية في ووهان / الصين.

لحسن ملواني*

حروفيات مشرقة بأنامل مبدعة

محمد جاسم فنان عراقي، انخرط بأسلوب وتقنيات المبدع المحترف في الفن التشكيلي، فتفنّن في صياغة حروفيات جميلة تتشاكل مع المنجز العربي في هذا المجال، وتستقل بلمسات ونظرات تتعلق بمهارته وخبرته المبنية على احتكاكه الطويل بالمجال الإبداعي.

من المعلوم أن الخط العربي له أهمية كبيرة لما يتمتع به من عطاءات تشكيلية تُخَوِّل له التجاوب مع إبداعات وفنون، مما دفع بالخطاطين لحشد كل مهاراتهم للاستفادة من خصائص ومزايا الخط العربي الفريدة والبديعة، واستنهاض أقصى ما يمكن من الجماليات التي تكتنزها تشكيلات حروفه الرشيقة المطواعة، بل حرص بعضهم على تطويرها، وابتكار طرازات جديدة منها تتوافق وتنسجم مع كل فن جديد.

من السمات العامة للحروفية العربية

بدءًا نشير إلى كون اللوحة الحروفية لوحة إبداعية تتوفر فيها مجموعة من السمات التي تضفي عليها جمالية آسرة، ومن هذه السمات حضور الحرف حضورًا هندسيًّا بما يمليه من تداخلات وتموّجات تضفي على معطيات اللوحة غموضًا مغريًا بإمكانه إشعال جذوة البحث والتساؤل من قبل المشاهد، مما يخلق بينه وبين اللوحة تواصلاً من نوع خاص.

علاوة على ذلك، لا بد للوحة أن تتضمن اتزان مركباتها شكلاً ولونًا، مع القدرة والتحكم في استعمال الخامات بتنوعاتها وخصوصياتها.. ومن شأن ذلك تحقيق الإيقاعية المتكاملة بين مفردات وخلفيات اللوحة بملمح جميل. ويفضي ذلك إلى بروز القيمة الجمالية والصوفية والهوياتية للوحة بكلماتها وحروفها، وما تحيل عليه من مضامين مختلفة بعضها مستقى من القرآن، وبعضها من الحديث النبوي الشريف، وبعضها من الشعر والأمثال.. والحروفيات تتطلب الكثير من الجهد والخبرة، لولوج عوالمها بما يطورها لتقديم ملمح بصري يساهم في تهذيب الذوق، ويرقى إلى تمثيل الفرادة الإبداعية في علاقتها بالتراث والحضارة العربية الإسلامية.

محمد جاسم وحروفياته المتميزة

في حروفياته مواصفات مؤثثة لجماليتها الحاملة لفرادةٍ وملمحٍ إبداعيٍّ جاذب للمتذوقين للحروفيات المكتوبة باللغة العربية، وهي اللغة التي تمتلك حروفًا مطواعة

تحولها أنامل المبدعين إلى تحف إبداعية راقية.

حروفيات متنوعة شكلاً ومضمونًا فيها الكثير من التجانسات والتدرجات اللونية المُضْفِيَة على المَلمح العام للوحة نوعًا من الجمال الخاص.

وفي جل لوحاته الحروفية غموض وضبابية تظلل وجه محتوياتها لتحيل على منظر الشمس المطلة وراء سحب منتشرة أمام إشراقتها، ملمح تكرر في كثير من أعمال هذا الفنان، مما يجعله صفة ملازمة لمنجزه الإبداعي.. وأهميته جماليًّا تكمن في سمة الغموض المشوق لمعرفة المراد، وفك التشابكات الحاملة لمعانٍ أو آيات أو حكم أو أبيات شعرية.. هذا الغموض -بصيغ مختلفة- ملازم لكثير من الأجناس الإبداعية السردية والشعرية والدرامية. ومن شأنه خلق المنفرَج الإيجابي الذي يبذل جهدًا من أجل القراءة وإبداء الملاحظة بدل الإبداعات السافرة التي لا تثير فضول المستهدفين بها.

ونلاحظ لجوء المبدع جاسم إلى مقاسات مختلفة للحروف، بحيث يكون بعضها مركزيًّا يحتل قلب فضاء اللوحة، وبعضها زخرفة محيطة بالعبارات المكتوبة بحروف بارزة، ويعتمد في ذلك تجانسات لونية قليلة ومتقاربة جدًّا عبر التدقيق في التدرج بها تدرجًا مبنيًّا على خبرة طويلة ومهارة إبداعية ناضجة.

وفي كل حروفياته نقف على اعتماده نفس الأسلوب

hiragate.com

والتقنية بدرجات متفاوتة، يطغى عليها الاهتمام بوضعيةِ واتّزانية الكتابة أكثر من المضمون الذي تحويه اللوحة، بحيث تنجذب إلى المخطوط من جانبه الجمالي قبل التفكير في قراءة مضامينه.

في لوحات جاسم محمد، تلك الفرادة التي تنم عن حسه الروحي بخصوصية تختلف من لوحة إلى أخرى، مستلهمًا عوالم صوفية وأجواء نورانية وهو يقوم بترصيف كلماته بالشكل الذي يبديها مسحات جمالية تستحق الرؤية. وهو في ذلك يتحرى الارتباط بتقاليد وسمات الخط العربي في أصالته وعراقته، بعيدًا عن المغامرة الإبداعية المفضية إلى التيه والعدمية.

نظرة عامة

إجمالاً تظل أعمال جاسم محمد في جانبها البنيوي الفني جميلة، لأنها تتخذ الحروف شكلاً ومضمونًا بنفحة إبداعية تتكرر من عمل إلى آخر، وبأوجه تحمل اختلافات طفيفة، مما يهبها مواصفات راقية إبداعيًا من حيث اختلافاتها النوعية عن منجز الآخرين في المجال.

وبُعْدها عن المباشرة يُعلي من شأنها، ويخلق نوعًا من الحوار والتجاذبات بينها وبين المشاهد، وهنا غاية من أرفع غايات الإبداع. أعمال فنية بمثابة أطباق حروفية مشتهاة رائقة للعين محيلة على تراثنا العريق الذي يعمل المبدعون على تخليده وإنعاشه وتجديده وإظهار جماليته.

أعمال تبعث على السكينة من جهة والتأمل المحاول الإحاطة بأبعادها الجمالية والمضمونية من جهة أخرى.. تحمل تحاورًا إبداعيًا مع الحرف العربي باعتباره الحرف الجميل الذي حمل تراثًا زاخرًا بمعطيات حضارية لها أثرها الروحي والإنساني الراقي في كثير من بقاع العالم.

حرف سنجد له أبعادًا ثقافية واسعة في لوحات هذا الفنان وغيره من المبدعين والمبدعات في هذا المجال.

وهي -انطلاقًا من هذه الحيثيات- أعمال تضيف إلى الحروفية العربية من الجمال ما يساهم في إغناء ملمحها عبر التأثر والتأثير في غيرها، وهنا مكمن التطور والتفاعل الفني الإيجابي.

وسيظل الخط العربي الوسيلة الفعالة التي صانت كثيرًا من جوانب التراث العربي والإسلامي، وفي مقدمتها كتب الدين باختلاف مشاربها. ومن شأن ذلك أن يجعل المبدعين يخوضون إبداعيًا في هندسة الحروف والكلمات العربية تعبيرًا عن مقامها الرفيع وقيمتها الثمينة.

ومسيرة الخط العربي، مسيرة حافلة بإبداعات تتجدد بتجدد الزمان ساعية إلى فرض وجودها الفني إثباتًا لهوية المسلم ورسمًا لبعض جوانب رؤيته الخاصة للعالم. ■

(*) كاتب وأديب مغربي.

المراجع

(١) الحروفية العربية الهواجس والإشكالات، د. محمود شاهين، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق ٢٠١٢م، ص:٦.

(٢) كلام في الفن التشكيلي، لحسن ملواني، منشورات جامعة المبدعين المغاربة، الطبعة الأولى ٢٠١٩م، ص:٥٦.

hiragate.com

حورية بلقاسمي*

بين أزمة الهوية وضرورة الأمن اللغوي

إن الأمة التي لا تتمسك بلغتها وهويتها هي أمة قابلة للاندثار، لأنه في زمننا هذا أصبحت اللغة العربية مفككة لأنها باتت متأثرة بشظايا اللغات الأجنبية التي يعود سببها إلى التأثر بثقافة الغرب. وقد رفع عديد من العلماء والباحثين أصواتهم محذرين من تفاقم مأزق هذه اللغة الفريدة، ولا سيما بعد أن عمت العالم ظاهرة الكونية الثقافية، وبعدما بات النص القرآني -وهو حصن اللغة العربية- متهمًّا زورًا بحمله بذور العنف والبغضاء. فقد باتت اللغة القومية تخضع للتفكك التدريجي، حيث يُخشى من تمازج الفصحى بشظايا اللغات الأجنبية، ما يؤدي إلى ظهور عاميات هجينة من اللهجات المحلية وقليل من العربية.

وفي كتابه "الهوية العربية والأمن اللغوي" يدافع عبد السلام المسدي بشدة وبقوة عن اللغة العربية قائلاً:

"لن يندم العرب على شيء كما قد يندمون يومًا على أنهم لم يلبوا نداء لغتهم وهي تستجير بهم منذ عقود أنْ "أدركوني"! هتفت بهم همسًا منذ أيام الاستعمار، ثم صاحت عند انقشاع غمته، وها هي لا تبرح تشكو وتستغيث. أمران جاءا يكثفان الوعي بمأزق اللغة العربية، ويدفعان ببعض النخب -هنا وهناك- إلى إرسال صيحات الفزع: ظاهرة الكونية الثقافية المتسترة بعباءة العولمة وامتداداتها، وظاهرة التهمة الجاهزة التي أمعنت في الإلهاء إلى حد الإضلال، فأشاعت أن الإسلام هو الإرهاب وأن الإرهاب هو الإسلام، ثم روجت أن الإسلام هو العرب وأن العرب هم الإسلام، فبدا الاستنباط حتميًّا بالضرورة أن اللغة التي بها جاء الإسلام وبها نزل نصه المقدس، تحمل في كيانها بذور العنف ومنابت البغضاء، فهي بذاتها عدوانية تسوق الكره وتحرض على الإقصاء".

وفي سياق آخر يعطي "المسدي" أهمية كبيرة للغة العربية محاولاً إبراز أهمية اللغة العربية في وجدان أبنائها مصرحًا: "إنه لا غنى للعربية عن أبنائها ولا غنى للعرب عن لغتهم، قد يصدق الأمر على كل الألسنة البشرية، ولكنه على لغة الضاد وعلى أهلها أصدق منه على سائر اللغات في كافة الثقافات". في هذا التنويه يرى المسدي أن اللغة العربية هي ملك لأهلها وأنهم لا يستغنون عن لغتهم وتراثها وقيمها مهما حصل. فإنه لجدير بالقول: إن اللغة العربية تعرضت إلى الكثير من محاولات التشويه والمحو مثل سنوات الاستعمار التي شهدها العالم العربي، وخاصة الاستعمار الثقافي الذي يهدف إلى نزع اللغة العربية من الجذور. إن لغة الضاد قد عاشت ألوانًا من الضيم طيلة الحقبة الاستعمارية، ولا سيما في الأمصار التي كتبت عليها الأقدار أن تعيش تحت نير الاستعمار الفرنسي. وحين دالت الأمور وحلت دولة الاستقلال، محل منظومة الحماية أو الانتداب أو الاستعمار، لم تجد اللغة العربية نفسها أفضل حالاً مما كانت عليه، اللهم إلا في إجراءات شكلية دون الجوهر".

مفهوم الهوية

نستطيع تحديد الهوية من خلال بعض العناصر الأساسية التي تميز الفرد، مثل الوطن والجنسية واللغة والعادات والتقاليد والتراث وغيرها، إذ وجدنا أنه "يمكن تعريف الهوية بأنها المشاركة في عناصر أساسية تحدد شخصية وتوجهات الأفراد من حيث احتياجاتهم المشتركة واهتماماتهم وأهدافهم". استنادًا إلى ما جاء به جمال الدين محمد في بحثه، فلقد وردت لفظة الهوية في لسان العرب لابن منظور من الفعل هوى، "وهوى بالفتح، يهوى هويًا وهويانًا وانهوى: سقط من فوق إلى أسفل، وأهواه هو، يقال أهويته إذا ألقيته من فوق. يقول خليل نوري مسيهر: "إن للهوية تعريفات متعددة حسب العلم الذي يبحث فيها: علم النفس، أو علم الاجتماع.. وتقول هويدا عدلي: "إن الباحث عندما يتعامل مع مفهوم الهوية على وجه الخصوص، فإنه يتعامل مع مفهوم قلق من الناحية النظرية، يثير أسئلة أكثر مما يقدم إجابات، حيث إنه من أكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية الشائكة نظرًا لما يثيره من إشكاليات عديدة. ولكن الباحث خليل نوري مسيهر العاني، يرى أن جميع العلوم تتبنى مفهومًا متقاربًا للهوية، وأنها جميعًا متفقة على أهم شيء في تعريف الهوية، ألا وهو الخصوصية والتميز عن الغير.

إذ يؤكد الباحث في هذا النص أن الهوية تمتاز بالخصوصية والتميز عن الغير، لأن الأمم تختلف والحضارات تتنوع، ولكل بلد في هذا العالم عاداته الخاصة وتاريخه الخاص ولغته المعروفة وتراثه المحفوظ. أما في البحث الخاص بصراع الهوية والذات يقول الباحث عريبي وعرجون:

"شهدت العقود الأخيرة من الزمن تشتتًا في الهوية، وذلك بسبب التغيرات التي طرأت على المجتمعات، وما حصل لمعظم الدول وانهيار القيم وتفكك العالقات فتغيرت الأبعاد القومية والثقافية والدينية والاجتماعية".

إذ يرى أن التغيرات التي طرأت على العالم العربي كانت سببًا مباشرًا في تشتت الهوية وتغير المجتمعات والمفاهيم الثقافية. فمن هذا المنبر يؤكد أنه: "اختفى معنى الهوية في المجتمعات العربية، وزال الألم عند بعضها، حتى إن الأعراق اختلطت فلم يعد هناك عرق نقي أو جنس صاف حتى في الأفكار، بل وحتى صار فقدانها مرضًا نفسيًّا وأصبحت تسمى بـ"الهوية".

hiragate.com

ضرورة الأمن اللغوي

لا يمكننا أن نتقن اللغة العربية أو نتقن فهمها إلا من خلال التأمين اللغوي الذي يمكننا من إتقان اللغة وإدراك ثقافتها، ومبادئها، ومعطياتها، وتاريخها. فمن خلال مكاسبنا القبلية حول الأمن اللغوي فهو التمكن من الفهم والتأويل للغة والتأقلم مع العولمة والتطور الحضاري مثل التكنولوجيا وغيرها. إذ يرى الدكتور محمود السيد: "أن الأمن هو ضد الخوف، وهو من الحاجات الأساسية لرفع مستوى المعيشة وتحسين نوعية الحياة، والوقوف ضد أي هيمنة أيًّا كان مصدرها داخلية كانت أو خارجية. والأمن الثقافي العربي هو مطلب هام للحفاظ على الكيان العربي والهوية، والاستمرار والحفاظ على المكتسبات الحضارية. وتعد اللغة خط الدفاع الأول للأمن القومي العربي، إذ إن الأمن اللغوي هو المقوم الأساسي والرئيس لتحقيق الأمن الثقافي، من خلال الحفاظ على التراث الثقافي من جهة التحديات الخارجية الرامية إلى هدم ثقافة الأمة وذاتها، والتصدي إلى غزو ثقافي، وهي التي تدعم الهوية وتحقق الأمن الثقافي.

التنويه السابق لمحمود السيد من كتابه "الأمن اللغوي ودوره في الحفاظ على هوية الأمة"، يوضح لنا أن الأمن الثقافي ما هو إلا ركيزة قوية تساهم في الدفاع عن الوجود العربي واستمراره والحفاظ على لغته من الاندثار. ومن جهة أخرى يؤكد اللساني محمود السيد أن الأمن اللغوي هو جزء لا يتجزأ من الأمن القومي، ولا يقل أهمية عن الأمن الغذائي والأمن المائي والأمن البيئي.. إلخ، لأنه يحافظ على الهوية، هوية الأمة التي ينتمي إليها من جهة أخرى.

تعليم اللغة العربية

إن الشخص الذي يرغب في تعلم أي لغة من لغات العالم، يجب أن يبني مهاراته على بعض المفاهيم الجديدة في عالم اللغة. إذ يتطلب تعلم اللغة العربية بعض المعلومات القبلية التي تعتبر شرطًا أساسيًّا في عملية التعلم أو التعليم، وبعدها المفاهيم الجديدة التي تكون بدورها مواكبة للعولمة والتكنولوجيا الحديثة. استنادًا إلى كتاب مستقبل ثقافة الطفل العربي فإن:

تعلم اللغة يعني بناء مفهومات جديدة عن الأشياء وكفايته لا تقاس بمدى ما يحتفظ به المتعلم من معارف معنوية، ولأن التعلم عملية بنائية نشيطة تبنى فيها المعرفة، وتهدف إلى تحقيق فهم أشمل لبيئتنا، وإضفاء معنى ودلالة على العالم من حولنا. وبناء اللقاء لا يعني تراكمها، فالمتعلمون يعيدون بناء تراكيبهم اللغوية والمعرفية مع النماذج الجديدة محل الأخرى القديمة، ولذا فإن المعرفة اللغوية القبلية شرط رئيسي لبناء المعنى من خلال التفاعل بينها وبين معرفته الجديدة، والذي يجب أن يلتفت إليه المعلمون أن المتعلم تبعًا لذلك نشيط مبادر يسعى لبناء المعرفة ولا يحتاج إلى التعزيز الخارجي، لأنه يعزز نفسه بنفسه عن طريق مقارنة نتائج ما وصل إليه بما يتوقعه. وهنا لا بد أن نتخلى عن مفهوم قديم وتقليدي يقوم على أن استخدام اللغة العربية في التدريس الغرض منه نقل المعلومات لأن اللغة العربية ذاتها تحمل معاني وأفكارًا. وتعيننا على التكيف مع بيئتنا والتواصل ذي المعنى مع غيرها. فالهدف من تدريس اللغة العربية مرتكز على عملية تحويل المكتسبات البيئية من أفكار وقيم ومظاهر وعادات إلى عقل المتعلم.

إن تعليم اللغة العربية ونحن في غمار مسيرة تطوير التعليم عملية ينهض بها من يفترض أنه يعلم، وتتضمن تلك العملية أعمالاً وإجراءات وتنظيمات يقصد بها تيسير التعلم، وتهيئة المناخ الداعم للتعلم الجيد. ويستمد تعليم العربية وتعلمها فلسفته من المداخل التربوية مع نظرية اللغة، ونتائج البحث في علم اللغة النظري والتطبيقي ونظريات التعلم اللغوي، وما يناسبها من طرائق وأساليب تتيح للمعلم الممارسة والاستخدام اللغوي والتدريب اللغوي والمناقشة والسؤال والجواب ونقل المعلومات والأخبار والمشاعر؛ مما يؤدي إلى امتلاك المتعلم اللغة العربية الفصحى المعمرة.

ومنه يمكننا القول إنه من خلال تطبيق هذه الإجراءات في عالمنا العربي، يمكن لمتعلم اللغة أن يكتسب الفصاحة في اللسان والدقة في الاستيعاب والفهم، خاصة إذا وجد المتعلم البيئة المناسبة والملائمة للتعليم والتعلم، لأن توفير البيئة أو المناخ المناسب للمتعلم يعتبر من أهم وأنجح المناهج التعليمية. ■

(*) كاتبة وباحثة جزائرية.

hiragate.com

أ.د. محمد عباس المغني*

أثر فقه المقاصد الدعوية
في تجديد الخطاب الديني المعاصر

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون دعوة الإسلام هي خاتمة الرسالات الإلهية، ومن ثم تضمنت هذه الدعوة من الخصائص[1] ما يضمن صلاحيتها للتطبيق في كل زمان ومكان. ومن أهم خصائص الدعوة الإسلامية ومقاصدها العامة التيسير على المدعوين، والرحمة بهم مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧). فجاءت دعوة سيدنا محمد ﷺ رحمة للعالمين، ومن مقتضيات هذه الرحمة تحقيق مصالح المدعوين في العاجل والآجل، وهذا هو المقصد الأسمى للدعوة الإسلامية.

ولما كان أول مقاصد الدعوة الإسلامية هو تحقيق المصالح ودرء المفاسد عن المدعوين، كان من أوجب الواجبات على الدعاة إلى الله -والذين أنيط بهم مهمة تجديد الخطاب الديني المعاصر- أن يتعاملوا مع النصوص الشرعية وفق هذا الاعتبار، بحيث يعملوا على فقه مقاصد الدعوة الإسلامية.

وفقه المقاصد يتطلب من الداعية الفقيه والمجدد أن يقف على المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظَمِها. وتدخل في ذلك أوصاف الشريعة وغاياتها العامة، والمعاني التي لا يخلو التشريع من ملاحظتها. وكذلك ما يكون من معانٍ من الحكم لم تكن ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها[٢]. وفقه المقاصد الدعوية يحتم على الداعية المجدد أن يحيط علمًا بمقاصد الشريعة الإسلامية التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:[٣]

١- المقاصد العامة: وهي التي تراعيها الشريعة وتعمل على تحقيقها في كل أبوابها التشريعية أو في كثير منها. وهذا القسم هو الذي يعنيه غالبًا المتحدثون عن "مقاصد الشريعة".

٢- المقاصد الخاصة: وأعني بها المقاصد التي تهدف الشريعة إلى تحقيقها في باب معين، أو في أبواب قليلة متجانسة، من أبواب التشريع. ولعل الشيخ ابن عاشور هو خير من اعتنى بهذا القسم من المقاصد. فقد تناول منها: مقاصد الشارع في أحكام العائلة. ومقاصد الشارع في التصرفات المالية. ومقاصد القضاء والشهادة. ومقاصد التبرعات. ومقاصد العقوبات.

٣- المقاصد الجزئية: وهي ما يقصده الشارع من كل حكم شرعي، من إيجاب، أو تحريم، أو ندب، أو كراهة، أو إباحة، أو شرط، أو سبب، وهي التي يشير إليها الأستاذ علال الفاسي بقوله: "والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها"، وهي التي تنطبق عليها أمثلة الشيخ ابن عاشور، من كون عقدة الرهن مقصودها التوثق، وعقدة النكاح مقصودها إقامة وتثبيت المؤسسة العائلية، ومشروعية الطلاق مقصودها وضع حد للضرر المستمر. وأكثر من يعتني بهذا القسم من المقاصد، هم الفقهاء، لأنهم أهل التخصص في جزئيات الشريعة ودقائقها.

ولا شك أن فقه الدعاة لمقاصد الدعوة الإسلامية، من أول المتطلبات لتجديد الخطاب الديني المعاصر؛ إذ إنه من أهم الركائز المؤثرة في نجاح عملهم الدعوي، ونشر الدعوة الإسلامية على الوجه الصحيح الذي يتناسب مع الواقع المعاصر.

وذلك بفقه النصوص الشرعية بكل أبعاد الفقه، والاجتهاد المنضبط في تلمس جوانب المصلحة فيها، ومن ثم تطبيقها في واقع المدعوين تطبيقًا يراعي البُعد المصلحي والمقاصدي للدعوة الإسلامية.

المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع.

وإذا كان فقه مقاصد الدعوة الإسلامية من المصطلحات المعاصرة والحديثة من الناحية اللغوية واللفظية، إلا أنه من ناحية المعنى كان موجودًا وبارزًا، بل ومصاحبًا للدعوة الإسلامية منذ بزوغ فجرها. وفي تطبيقات سيد الدعاة ﷺ العملية؛ فقد وُلد علم المقاصد الدعوية، مع بداية نزول الوحي على النبي ﷺ في غار حراء، في ليلة القدر، وكانت نشأتها مع نشأة أحكام الشريعة الإسلامية، وكانت موجودة في النصوص الشرعية من كتاب وسنة، ومضمونة في معانيها وأهدافها وتعاليمها تصريحًا كان أم إيماءً[٤].

وفقه مقاصد الدعوة الإسلامية إنما يكون بفقه الداعية لأصول رسالة الإسلام، ومعانيها، وأسرارها، والحكم الملحوظة للشارع في جميع النصوص الشرعية، وهذا يعني "فهم النص بكل أبعاد الفهم، فليست القضية أن يقف الداعية على مرادفات الألفاظ فقط، بل على كل علم يستلزم وجوده فهم بُعد معين رمى إليه النص، وعلى هذا فالداعية يتساوى مع كل علماء الدين الإسلامي في العودة إلى الكُتب التي عنيت بالنص شرحًا وتفسيرًا، وينفرد عن بقية العلماء في هذا الصدد بأمرين:

الأمر الأول أن الداعية يبدأ من حيث انتهى الآخرون، فيأخذ من كتب الثقات ولا يتعمق تعمق المتخصص، عليه فقط أن يعرف ممن يأخذ بعد الوقوف على ماهية توجهاته.

الأمر الثاني أن الداعية واسع التجوال بين كل العلوم

hiragate.com

والمعارف؛ ليتمكن من فهم النص بكل أبعاده ولذا يقتبس من كل علم نافع ويسأل الخبراء وأهل المعرفة "[٥].

وعلى هذا، ففقه مقاصد الدعوة معناه: أن يبذل الداعية قصارى جهده في إدراك معنى النص القرآني أو النبوي وفهم مراميه فهمًا دقيقًا، لمعرفة دلالات النصوص المقدسة على معانيها، مستعينًا في ذلك بما وهبه الله من عقل وبصيرة، وبما وصل إليه السابقون من علماء الإسلام من بيان مراد الله من النصوص، ومستعينًا في ذلك أيضًا بكافة العلوم القديمة والحديثة التي تُعينه على فقه النصوص وإدراكها.

وعلى الداعية في تعامله مع النصوص الشرعية قرآنًا وسنَّة، أن يبحث عن المقاصد والغايات التي أراد الله تعالى تبليغها للمدعوين والاستجابة لها، ولا يكتفي بالوقوف على ظواهر النصوص الشرعية أو الاجتزاء المقاصدي بالتركيز على بعض المقاصد وترك المقاصد الأخرى. فقد ذم الله تعالى من تمسك بظواهر النصوص دون النظر لمقاصدها، قال سبحانه: ﴿وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(النساء:٨٣). ففي الآية مدح صريح لأهل الاستنباط، وذم للمتعجلين الذين يقفون عند ظاهر النصوص[٦].

وعلى الداعية المجدد أن يطيل النظر في نصوص المصادر الأصيلة للدعوة الإسلامية من الكتاب والسنة؛ إذ إنها جاءت مقترنة بالمقاصد والغايات، "فالقرآن وسنة رسول الله ﷺ مملوءان من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح، وتعليل الخلق بهما والتنبيه على وجوه الحكم التي لأجلها شرعت تلك الأحكام ولأجلها خلقت تلك الأعيان، ولو كان هذا في القرآن والسنة في نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة؛ فتارة يذكر لام التعليل الصريحة، وتارة يذكر أداة لعل المتضمنة للتعليل المجردة عن معنى الرجاء المضاف إلى المخلوق، وتارة ينبه على السبب يذكره صريحا وتارة يذكر الأوصاف المشتقة المناسبة لتلك الأحكام ثم يرتبها عليها ترتيب المسببات على أسبابها، وتارة يستدعي من عباده التفكر والتأمل والتدبر والتعقل لحسن ما بعث به رسوله وشرعه لعباده كما يستدعي منهم التفكر والنظر في مخلوقاته وحكمها وما فيها من المنافع والمصالح، وتارة يذكر منافع مخلوقاته منبها بها على ذلك وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وتارة يختم آيات خلقه وأمره بأسماء وصفات تناسبها وتقتضيها والقرآن مملوء من أوله إلى آخره بذكر حكم الخلق والأمر ومصالحهما ومنافعهما، وما تضمناه من الآيات الشاهدة الدالة عليه، ولا يمكن من له أدنى إطلاع على معاني القرآن إنكار ذلك"[٧].

وعلى الداعية المجدد أن يركز في خطابه الديني المعاصر -بكل وسائله وأساليبه- على إبراز المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية. وقد جمع الأستاذ علال الفاسي مقاصد الشريعة -العامة منها والخاصة- فقال إن "المقصد العام للشريعة الإسلامية هو عمارة الأرض، وحفظ نظام التعايش فيها، واستمرار صلاحها بصلاح المستخلفين فيها، وقيامهم بما كلفوا به من عدل واستقامة، ومن صلاح في العقل وفي العمل، وإصلاح في الأرض، واستنباط لخيراتها، وتدبير لمنافع الجميع.

فحري بالدعاة إلى الله التفقه في هذا الباب، للوقوف على المقاصد الشرعية العامة والخاصة فلا يهملوها أو يتجاوزوها، وكذا معرفة أقسامها ومراتبها للترجيح بينها عند التعارض وتقديم أولاها وأرجحها؛ فلا يقدم الداعي ما حقه التأخير ولا يؤخر ما حقه التقديم، كما أنه يحرص على أن يكون مقصده من دعوته موافقًا للمقاصد العامة والخاصة.

ومن الآثار الطيبة التي تنتج عن فقه الداعية لمقاصد الشريعة وتنزيلها على الواقع الدعوي في خطابه الديني المعاصر النجاح في عمله الدعوي والانضباط في التجديد؛ لأنه بفقه المقاصد تنضبط حركة الدعاة، وتثمر دعوتهم، وتوفق كلمتهم، وتصح اجتهاداتهم، وتُعصم أفكارهم من الزيغ والانحراف. فبعض المناهج الدعوية انحرفت وزاغت بسبب جهلها أو إهمالها للمقاصد الشرعية، فأتت بأعمال تهدم أصول الشريعة ومبادءها وتجعلها متناقضة متعارضة أمام غير المسلمين بسبب إهمال هذه القاعدة المهمة، مما يجعل دراستها وتطبيقها من أولى المهمات[٨].

hiragate.com

وإن ما أصاب الحركات الدعوية قديمًا وحديثًا من خلل في الفهم، وانحراف في السلوك، وبُعد عن المنهج الدعوي الصحيح، إنما هو بسبب إهمال فقه مقاصد الدعوة في الفهم، وعدم تفعيله في البلاغ والنشر، مما تسبب في عرض الإسلام بصورة مغلوطة أدت إلى تشويهه وتعطيل حركة سيره ونشره في العالمين. وقد نبتت في القديم والحديث نوابت من الأفراد والفرق والجماعات شطت في التعامل مع نصوص القرآن والحديث شططًا انتهى بها أحيانًا إلى هدم أن يكون للطلب الإلهي أي مقصد شرعي، وذلك بما ركبته من مراكب التأويل الذي يفرغ الطلب من مضمونه المقصدي[٩].

ويظهر أثر فقه المقاصد في الخطاب الديني في ترتيب سلم الأولويات في الدعوة إلى الله سبحانه: فيقدم الداعية إلى الله الضروريات على الحاجيات والتحسينات، ويقدم الأصل على التابع، ويقدم ما فيه مصلحة العامة على ما فيه مصلحة الخاصة، ويحذر الناس على قدرة عقولهم ومستوياتهم على الفهم. والداعية كالطبيب لا بد له من معرفة المقاصد، لأنها الدواء الذي يجب أن يقدمه في الوقت المناسب وفي الظروف المناسبة[١٠].

وإن عدم فهم مقاصد الدعوة الإسلامية يؤثر تأثيرًا سلبيًا على عمل الداعية وعلى دعوته؛ حيث ينحرف عن منهج الدعوة المستقيم في دعوة الناس لهذا الدين.

وأخيرًا نقرر ما قرره الأستاذ المجدد "فتح الله كولن" في معرض حديثه عن تجديد الخطاب الديني، من أن الحياة التي نحياها ونستنشق أنفاسها عمل فني جمالي خلاق، أبدعه الخلاق العظيم، تتجدد كل يوم وكل لحظة وكل وهلة، فينبغي أن تكون "الدعوة" حياة تحيا بأنفاس الدعاة وتتحرك في أرواحهم، وعلى قدر ما يعطونها من حياتهم، وينفخون فيها من أرواحهم وعقولهم، والبحث عن سبل التجديد والتطور فيها ومواكبتهم لعصرهم، تنمو وتكبر وتتسع وتتجدد، وبالقدر الذي يتوجهون فيه إلى الله ويستمدون من رحمته ومن قوانينه في الطبيعة والتجدد، تتقدس دعوتهم وتطهر حتى تصبح ملاذًا للجميع، وتصبح لها بصمة لا يخطئها أحد بين غيرها من الدعوات. فكما نرى أن قوانين الطبيعة تتجدد على مدار السنة، من صيف إلى خريف إلى شتاء إلى ربيع، وتتفتح الأزهار بعد انطفاء ويتغير حالها على مدار العام، وبمختلف الأماكن، يجب أيضًا السير مع سنن الله الكونية في التجدد والتحديث، وتحديث أساليب وطرق الخطاب الدعوي، لينهل منه الجميع ويكون لهم موردًا لري ظمأهم، في وسط كل هذه التطورات والأفكار المعادية والمنافرة للفطرة الإنسانية[١١].

وإن عمل الداعية وتبليغه ونشره للإسلام في ضوء فقه مقاصد الدعوة العامة يحفظه من التحزب، والانحراف، والعمل لحساب فئات معينة، أو أفكار ورؤى محسوبة على الدعوة تسعى لتحقيق منصب، أو جاه، أو رئاسة؛ لأن الأعمال بمقاصدها، ومقصد الدعوة من أشرف المقاصد وأعظمها. ■

(*) جامعة الأزهر، كلية أصول الدين، القاهرة / مصر.

الهوامش

(١) من هذه الخصائص أنها الدعوة (الخاتمة، والتامة، والشاملة، والعامة، والخالدة).

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ٢١/٢، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر عام النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٣) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، المؤلف: أحمد الريسوني، ص:٧، الناشر: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة: الثانية - ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٤) ينظر القواعد الشرعية ومقاصد الالشريعة، عيسى بوراس ٨٥ الجزائر، جمعية التراث، المطبعة العربية، ١٤٢٤هـ.

(٥) منهج الدعوة إلى الله تعالى، د. حسين خطاب، ص:٨٨-٨٩.

(٦) زهرة التفاسير، أبو زهرة (ت ١٣٩٤هـ) ١٧٨١/٤، دار النشر: دار الفكر العربي.

(٧) مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية ٣٢/٢، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

(٨) فقه الدعوة مراعاة مقاصد الشريعة الكلية والجزئية، د. وليد خالد الربيع، مجلة الفرقان الكويتية العدد ١٥-١٦، لسنة ١٤٠٨/١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م/١٩٨٩م.

(٩) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، د. عبد المجيد النجار (٢٨)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.

(١٠) مقاصد الشريعة، يوسف أحمد محمد البدوي، ص:١٠٤ وما بعدها، الطبعة الأولى، دار النفائس، عمان، الأردن، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(١١) طرق الإرشاد في الفكر والحياة، محمد فتح الله كولن، تقديم إبراهيم الدباغ (٦-٨)، دار النيل، القاهرة، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٨م.

hiragate.com

سليمان أحمد شيخ سليمان*

التربية بالكيف لا بالكَمّ

إن أول دعائم التربية المثالية للأطفال هو تهيئة الجو والبيئة المناسبين للقيام بذلك، فالشخصيات تتكون في الأعم الأغلب وفقًا للوسط الذي تنشأ فيه وتترعرع. والإنسان ابن بيئته شاء أم أبى، والبيتُ في صدر القائمة التي يتشكل منها هذا الوسط والبيئة، ثم تأتي من بعده في الترتيب المدرسةُ ثم الأصدقاء ثم زملاء المدرسة وما بعد ذلك من عناصر الحياة الاجتماعية؛ كالبائع في السوبر ماركت والحلاق والخياط والسائق.

فإذا لم نعمل على ضبط هذا المحيط الاجتماعي الذي يتجول

فيه الطفل ويدور، ولم نجتهد في تطهيره؛ فلا مهرب أو مفر من حتميّة إصابته بالفيروسات يومًا ما، لأن فساد الظرف سيتمخّض عنه فساد المظروف.. ولذلك فمن الواجبات الأولية علينا أن نهيئَ الجو المناسب ونطهره ونعدّه لتربية أبنائنا تربيةً مثالية، فنبدأ بتطهير البيت من العناصر المتعارضة مع الفطرة ومع قيمنا المجتمعية، ثم ننتبه إلى كل الجوانب المجتمعية التي تعتبر جزءًا من البيئة التي تحتضن أطفالنا، لأننا إن لم نفعل ذلك وتهاونّا إلى أن غزت الفيروساتُ أذهان أبنائنا وشوّهت فطرتَهم وذوقهم، فلن نستطيع بعد ذلك تصحيح المسار وإعادةَ الأمر إلى ما كان عليه.

جاء في حديث شريف: "افتحوا على صبيانكم أول كلمة بـ"لا إله إلا الله"[1]، وهذا يعني تهيئة الأطفال وتحضيرهم وتجهيز البيئة لهم بما يتناسب مع قيمنا الدينية من توحيد للخالق جل جلاله.

لا جرم أن أول كلمة تخرج من أفواه الأطفال غالبًا هي "بابا" أو "ماما" ولا حرج في ذلك، فهم يقولونها بالتلقين دون فهم، ولكن علينا أن نعمل على أن تكون أول كلمة تنبس بها شفاههم عن قصد وإرادة وإدراك وفهم، هي لفظ الجلالة "الله"، لأن الله هو الأول فلا شيءَ قبله، والآخر فلا شيء بعده، وهو القديم الباقي، الأزلي الأبدي، ثم بعد ذلك ندندن مع الطفل ونبني له شخصيته وخياله وتفكيره، ونُشبِعُ ذهنه بما يتناسب مع هذا المبدإ الأصيل، ونرفده بالمصطلحات والقصص والمفاهيم والقواعد المتناسبة مع سنّه ونموّ إدراكه. فمن الطبيعي أن الجرعات التي تُعطى للطفل في سن الابتدائية ليست هي التي تُعطى لمن هم في سن الإعدادية أو الثانوية، ففي الابتدائية التلقين ثم في الثانوية نعلّمهم الأدلة والبراهين العقلية التي تشفي تساؤلاتهم وتستجيب لمحاكماتهم العقلية. وهذا كله شريطةَ ألا يتخلّى البيتُ عن أجوائه المشحونة بحب الله ورسوله وتوقيره لهما.

لا يقصد النبيُّ من خلال الحديث السابق، مجرَّد أن يتلفّظ الطفل أو ينطق لفظ الجلالة "الله"، ولكنه يقصد أن تكون البيئة الحاضنة قد جهّزت نفسها لرعاية هذا الطفل

ابتداءً باسم الله، وأن يترعرع الطفل في هذه البيئة وهو يتشرب الفطرة الصحيحة التي تدلّه على أن الله معه ويراه كيفما كان وحيثما استدار.

فالبيتُ الذي لا تخلو منه الأذكار، ولا يُفارقه ذكر الله، واستنارت أركانُه وزواياه بالركوع والسجود لله، وجاشت فيه العواطف وانهمرت فيه الدموع حبًّا لله ورجاءً وخشيةً.. يُتوَقّع للطفل المترعرع فيه أن تكون أول كلمة تجري على لسانه هي كلمة "الله"؛ لأن كل ما في هذا البيت يُشير إلى ذلك.

علينا أن ننظر إلى الأسرة على أنها مؤسّسةٌ قائمة على روح الدين، تتّخذ من مرضاة الله سبحانه وسيلةً للمحافظة على بقائها واستمرارية حيويّتها. وفي هذا الصدد أخبرنا النبيُّ ﷺ بأن أمثال هذه الأسر ستكون مثار فخر بالنسبةِ له فقال: "تناكحوا تكثروا فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة"، فإن كانت الأسرة والأجيالُ لا تعرف شيئًا عن الله ورسوله، ولم تسبح في فلك محبتهما وتوقيرهما، فلن تكون مدعاة للفخر بالنسبة لنبيّنا محمد ﷺ، ولن تكتسب أيّة قيمة عند الله ﷻ، ولا عند رسوله ﷺ مهما ازدادَ سوادُها وتكاثرت أعدادها.

إن كثرة العدد ليست مطلوبة لذاتها، وها هو القرآن الكريم في شواهد عديدة يُثبت ويبيّن أن الأسبقية والأهمية لا تكمن في كثرة العدد، ومن ذلك قوله جل شأنه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ

hiragate.com

أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾(التوبة:٢٥).

يوم "حنين" هو ذلك اليوم الذي شنَّ فيه النبي ﷺ الحرب على "هوازن وثقيف"، وهي أول معركة يخوضها النبيُّ مع صحابته بعد فتح مكة. لقد كانت أعداد الجيش الإسلامي فيها كثيرة وكبيرة لدرجة لم يعهد مثلها المسلمون من قبل. فقد كانوا قبل تلك الوقعة قد اعتادوا دائمًا على محاربة المشركين بأعداد أقل من أعداد المشركين، لكنهم اليوم -ولأول مرة- يتفوّقون على العدوّ من حيث العدد، فقال الصحابة في أنفسهم "إنما كنا من قبل نقاتل الكفار ونحن أقل منهم في العدد فنغلبهم وننتصر عليهم، ونحن اليوم أكثر منهم عددًا وعدّةً، فالنصر حليفنا لا شك في ذلك، ومن دون جهدٍ أو تعب"، وهذا هو المقصود بقولهم "لن نُغلَب اليوم عن قلّة".

لكن المتتبع لسير الأحداث في المعركة، سيجد أن جيش المسلمين عندما اغتر بكثرة عدده ما إن حمي وطيس المعركة ودارت رحاها حتى أصيب بصدمة مُرْبِكة مؤقتة فتراجع متبعثرًا، وتشتّت الجيشُ وفرَّ كثيرٌ من الناس عن رسول الله ﷺ، ولم يصمد أحدٌ في المواجهة سوى النبي ﷺ ومعه بضعة نفر لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين.. وكان النبيُّ ثابتًا راسخًا لم ينهزم أو يفر، بل كان يقول بكل ثقة وطمأنينة ورباطة جأش:

"أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب"

لقد أطلق النبي نداءاته المتكررة للجيش المتبعثر المهزوم بأن يستجمع قوته اعتمادًا على الله لا على الكثرة، فبدأ النبي ينادي ويقول: "إليّ عباد الله أنا رسول الله"، فكان أول من أجاب النبيَّ عمُّه "العباس"، ففرح لأن العباس كان صوته عاليًا. فقال له النبي: "نادِ عليهم يا عباس"، فقال: ماذا أقول؟، قال النبي: "قل يا أصحاب بدر"، فبدأ المسلمون يتجمّعون حول النبي ﷺ، وكان عددهم ٦٦ من الأنصار و٣٣ من المهاجرين.

لقد أراد النبي ذلك الإنسان الجوهر الذي قاتلَ يوم بدرٍ وهو أقل عددًا وعدة، لكنه أعلى في الاستعداد والماهية، فجاءت النداءات المتكررة من خلال العباس بن عبد المطلب إيذانًا بزوال أهمّية الكمّية والالتفات إلى أهمية الكيف والماهية. وبالفعل فقد بدأ الجيش الإسلامي المتبعثر يتجمع شيئًا فشيئًا، ويستجيب للنداءات المتكررة والتوجيهات التي بثها النبي ﷺ بصوت عمه العباس بن عبد المطلب ﷺ. إلى أن عادت الغلبة لجيش المسلمين وكتب الله لهم النصر المؤزر. وكانت تلك الهزة بمثابة درس مهم ثبَّت وأكد لديهم أن كثرة العدد ليست شيئًا مهمًّا لهذه الدرجة، إنما الأهم هو العمق والكيفية وسعة الأفق.

لقد كان هذا الأمر بمثابة هزّة عنيفة بالنسبة للصحابة، وهم رضوان الله عليهم كانوا من المقرّبين، والهزّة أو الرجّة والتشتت والتراجع المؤقت قد يُعدّ ذنبًا بالنسبة لهم وليس لنا، إذ "حسناتُ الأبرار سيّئاتُ المقرَّبين". فثبّتَت هذه الهزة في قرارتهم أن الميزان هو الكيفية والعمق الداخلي، وليس الكمية أو العدد الخارجي، والعبرة بالكيف لا بالكَمّ.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة:١٠٠).

قد يكثر الخبث والخبثاء حدَّ الدهشة، ولكنه لن يستوي مع الطِّيْبِ والطيبين أبدًا، فلنهتمّ بتربية النشء

والذرية التي تذكّرنا بالجنة بروائحها المعنوية التي تنشرها هنا وهناك، ولنهتم بهؤلاء الأجيال، ونعمل على تهيئة البيئة المناسبة لهم ولنهتمّ ببناء ذاتهم أكثر من اهتمامنا بكثرة أعدادهم.

علينا أن نعلم أن "الكثرة" في الذرية الفاسدة تفتح على رأس صاحبها سلسلةً من حلقات الهاوية نحو الحضيض، وما من حلَقةٍ إلا والتي بعدها أشأم منها. وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا التسلسل فقال: "كيف بكم إذا فَسَق فِتْيانكم، وطغى نساؤكم؟" قالوا: يا رسول الله، وإن ذلك لَكائنٌ؟ قال: "نَعَمْ، وأشدُّ منه، كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر؟" قالوا: يا رسول الله، وإن ذلك لكائنٌ؟ قال: "نَعَمْ، وأشدُّ منه، كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفًا، والمعروفَ منكَرًا؟"[٢].

هذا يعني أن الإكثار من الأولاد الفاسقين لا يرجى منه أيُّ فائدة، وأنَّ الغاية الأسمى هي تنشئة جيل مفعم بالإيمان، راسخ الإرادة، متماسك مادّيًّا ومعنويًّا، ذي بصيرة قويّة تحتقر الدنيا بوجوهها الجسمانية والنفسية، هذه صفاته ومؤهّلاته حتى لو كان عدده قليلاً.

قال رسول الله ﷺ: "يوشك الأممُ أن تَداعى عليكم كما تَداعى الأكَلَة إلى قصعتها"، فقال قائل: ومِن قِلَّة نحن يومئذ؟ قال: "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن"، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: "حب الدنيا، وكراهية الموت"[٣].

فأيُّ مجتمع يعتبر الجوانبَ الجسمانيةَ للدنيا مقصودةً لذاتها، فيحبّها ويتّجه بقلبه وروحه إليها، ويغمض عينيه عن ضرورة العمل في سبيل مرضاة الله وينسى الآخرة.. فيفضّل الدنيا وما فيها على الله تعالى، ويفضل المادة على المعنى، فلا يمكن اعتباره مستقيمًا حتى وإن كان يشهد أن لا إله إلا الله.

فليس المعيار في الصواب والخطإ هو القلة والكثرة، وكما يقول ابن القيم: "عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين".

ليس المهم هو كثرة العدد بغض النظر عما يحملونه من شمائل وصفات وخصال، وإنما المهم هو ما تكتنزه شخصياتهم من الفضيلة والطهر، وما تتمتّع به أرواحهم من الصفاء والنقاء، وفي هذا يقول البُستيُّ في نونيّتِهِ:

يا خادمَ الجسمِ كمْ تَشقَى بِخِدْمَتِهِ
أَتطلُبُ الرِّبْحَ فيما فيه خُسرانُ!
أَقْبِلْ على الروح واسْتكمِلْ فَضائِلَها
فَأَنْتَ بالروح لا بالجسمِ إنسانُ

نعم لقد أراد النبيُّ الكثرةَ، ولكنه أرادها بالتوازي مع الكيفية، وعندما يزيد العدد دون تربية صالحة يأتي التحذير النبوي من الكثرة التي لا قيمة لها "أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل" أيْ لا قيمة ولا وزن. ■

(*) كاتب وباحث سوري.

الهوامش

(١) البيهقي، شعب الإيمان، ٣٩٨/٦.

(٢) عبد الله بن مبارك، الزهد والرقائق، ٤٨٤؛ أبو يعلى، المسند، ٣٠٤/١١.

(٣) سنن أبي داود، الملاحم، ٥؛ مسند الإمام أحمد، ٨٢/٣٧.

hiragate.com

باولو برانكا*

بين الدنيا والآخرة

ولقد علمت لتأتين منيتي *** إن المنايا لا تطيش سهاما

نستهل حديثنا بكلمات من الشعر الجاهلي، حيث نتمعّن في شعر لبيد بن ربيعة العامري، كغيره من الشعراء السابقين له والمتفقين معه، تناوله للعجز الإنساني عن فهم قضاء الموت أو التدخل فيه؛ وهو موضوع مهم ليس فقط للأدب وللفلسفة، ولكن للأديان كلها على مر التاريخ البشري.

وفي عصرنا الحالي، لا يتم تناول الموضوع بعمق من قبل الكثيرين، وغالبًا ما يتم التعرض له بشكل سطحي. ويعود ذلك إلى تطور الخدمات الصحية والتقنيات المتقدمة، الذي مكّن المؤسسات من العناية بالأشخاص وتقديم الرعاية الخاصة لهم، مما جعلهم يبتعدون أو يتجاهلون فكرة الموت كنهاية حتمية للحياة، ويخفون عن هؤلاء مرحلة مهمّة جدًّا كان الوسط الاجتماعي والعائلي يعيشها قديمًا، وهي فترة التحضير لهذه اللحظة النهائية الحتمية.

كم من المرات التي كرر فيها العلمانيون والملحدون ومن لا يعترفون بالأديان هذه العبارة بشكل هزلي: أن الله يحتاج إلى الموت وأن الموت لا يحتاج إلى الله. وعلى الرغم من ذلك، وإن كان هذا يخالف رأيي ولا اتفق معهم، إلا أنني مدين لهم بالشكر فقد دفعوني إلى التفكير مليًا، ولولاهم ما توصلت إلى هذه التأملات وما خطر لي هذا على بال. في رأيي أنه قد كان لفكرتهم هذه دور لا يستهان به في أن يتقرب الناس أكثر إلى الايمان أو على أقل تقدير، في أن يزداد الرجاء في الآخرة عند كثير من المؤمنين.

ولكن يبدو هذا سطحيًا، بل وتافهًا إذا تمعنْتَ فيه جيدًا، النهاية مثل البداية مثل أي شيء، فحياتنا كتبت بشكل يناسب مساحة الزمان والمكان اللذين نتواجد فيهما، وهذا حسنٌ كي يتواضع الجميع، وإلا فسيزداد الجنس البشري غرورًا. ولذلك لا بد لهم من معرفه الحقيقة، وأنه سيأتي يومٌ يتركون كل شيء. عليك أن تتخيل المساحة الزمنية المفتوحة أمامهم لو لم يكن هذا اليوم آتيًا. ورغم أن هذا التعبير الأخلاقي لا يروق لي، فالكتاب المقدس في سفر الإنشاد، يؤكد أن "المحبة قوية كالموت، والغيرة قاسية كالهاوية، لهيبها لهيب نار لظى الرب".

الموت يرعبُنا كنهاية لكل شيء، لأنه محمل بالقلق واليأس والتخوف من عدم رؤية أشخاص قد يكونون غاليين علينا أكثر من أنفسنا. ولكن كيف من الممكن أن يكون الحب قويًا مثل الموت؟

أعتقد أن الحب يفاجئنا ويخيفنا أكثر، بينما الموت ينهينا بالكامل.

الحب هو الشي الوحيد القادر على تغييرنا، الشيء الذي يحتاج فعلاً إلى الاهتمام والجهد، مؤلم أكثر من غيره ولكنه الأجمل ثمرًا على الإطلاق.

لهذا نرى الشاعر "إليوت" يكتب ويقول: "أبريل هو الشهر الأكثر ألمًا"؛ حتى أن استيقاظ الطبيعة في فصل الربيع يأتي بألم الصمت الشديد. أيضًا الحب يستمر مهما يستمر ولا ينطفئ أبدًا، بل إنه في أغلب الأحيان ينتقل من العفوية إلى الفعل الاختياري، آخذًا على عاتقه

الموت يحتاج إلى الحياة، أو على أي حال يحتاج إلى شيء تنبض فيه روح حي كي ينهيه: مثل النبات والحيوان؛ فالتكلم عن موت الجماد لا يكون إلا في مقام الاستعارة فقط.

مسؤولية التحرّر التي تستمر حتى آخر مدى.

قد يمكننا أن نحكم على الأمور قبل تجربتها، ولكن ذلك سيكون دربًا من دروب عدم النضج والبرود وانغلاق العقل، وستنقص القدرة على شرح المنطق أو الذهاب به إلى مدى أوسع مثل احتواء الشريك والأشياء الصغيرة وليس لوقت قصير، بل من عمق التاريخ البشري للاحتفاظ بالجنس البشري. كل هذا لا بد له من حدود جيدة للفهم، وفهم الاختلاف بيننا وبين المخلوقات الأخرى، نحن لا نأكل، ولكننا نتقوت ونتفاعل ليس بحدود المعرفة فقط، ولكن هو فن المعايشة.

نحن لا نولد لنتزاوج ونموت فقط.. وهذه التحولات في موقفنا تأتي في شكل طقوس مصحوبة بإشارات واحتفالات ومشاركات جماعية، وللأسف تختفي أمام موقفهم الاستهلاكي التكنولوجي حتى الاختفاء في حدود الأحداث المعاشة يوميًا ويجعلهم أيضًا أكثر عزلة، مصابين بالنقص، محملين بالخوف والعشوائية.

للأصدقاء الذين يخبرونني أن الله يحتاج إلى الموت ليخيفنا ويدفعنا إلى الإيمان به، أجيب أن الموت هو الذي يحتاج إلى الحياة، لأن كل نهاية تحتاج إلى بداية، وأنه كما يقولون: "في الطبيعة، المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم". فربما يكون الموت بداية لشيء آخر.

الثنائية الغريبة

الحب والموت (آيروس وثاناتوس) هما دائمًا شريكان بشكل غير عشوائي منذ القدم، ثنائي محدد في جوهره رغم اختلاف المظهر والنهاية والأهداف، ولن نتطرق إلى طرقهما ومسلكهما، فأول كل شيء وآخره هو الله.

الموت يحتاج إلى الحياة، أو على أي حال يحتاج إلى شيء تنبض فيه روح حي كي ينهيه مثل النبات

hiragate.com

والحيوان، فالتكلم عن موت الجماد لا يكون إلا في مقام الاستعارة فقط.

ولذلك فإن تعريف دورة الحياة نفسها، يحتاج إلى الموت، وهو غير كامل بدون الموت، ويصبح بلا معنى إذا لم نعط المعنى الجوهري المحدد لماهيته. فمن الواضح أن الحياة لها نقطة بداية ولذلك لا تنهي نفسها، بل يأتي في الاعتبار أن ما ينهيها هو كبر السن (الشيخوخة)، أو المرض، أو اليأس.. فهذه الاختبارات ما زالت تأخذ جزءًا من واقع دورة الحياة بالرغم من سلبيتها أو عدم فاعليتها. فمن الممكن أن نؤخّر التقدم في العمر ونجعله مقبولاً. والمرض أيضًا لدينا الاستطاعة على علاجه والشفاء منه، واليائس أيضًا يتم علاجه ويمكن الأخذ بيده حتى عبور المواقف، بينما الموت وحده هو المنحنى الذي لا رجعة منه؛ تتغير الحالة ككل وبشكل نهائي، وعلى أقصى تقدير يمكن القول بأنه الأقل ألمًا حيث ينتهي طريق المعاناة في حالة من التحرر، وهنا تنتهي المعاناة ويأتي الشعور بالراحة الأولى التي كانت من قبل البداية.

العدو الحقيقي

وما زلت أكرر الشكر للذين طرحوا علي التساؤلات وفتحوا أبواب فكري في هذا الموضوع بجدية وعمق. واكتشفت أن الموت يوقف حركة الحياة المستمرة نحو القيامة ونحو إعادة التحرك كما قال بعض الفلاسفة والمفكرين منذ القدم: إن الله هو الحي، و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. وعندما ننظر إلى خلق الإنسان من علقٍ ونفكر في أصل الكلمة، نكتشف أنها تشير إلى العلاقات لما لها من نفس الجذر وهي العلاقات الشخصية، وبالفعل فإن شخصيتنا تتكون وتتطور بفضل العلاقات مع الآخرين منذ بداية حياتنا إلى نهايتها، وستكون إعادة التحرك كما يرى بعض الفلاسفة والمفكرين منذ القدم.

كما يؤكد على ذلك "مار بولس" في قوله: "آخر عدو يبطل هو الموت" (١ كو ١٥:٢٦)، وإن كان بكل تأكيد هذا القول ليس بجديد، بل هو يمثل العديد من وجهات النظر الفلسفية الدينية لمن قبله ومن بعده، لمن يسيرون على الايمان والرجاء، مما يخفف من الخوف الذي قد يتسرب إلى نفوسهم من فكرة بلوغ النهاية، من خلال خلق أمل في استمرارية وجودنا (أو على أقل تقدير جزء منه)، بعد اجتياز هذه المرحلة، وصولاً إلى التخيل الوصفي الدقيق لتلك الحياة الأخرى بتفاصيلها ذات القيمة الخالدة، التي لا تقارن بالوجود الأرضي الفاني والمحدود، التي وإن كانت مترتبة عليه ومرتبطة به ارتباطًا وثيقًا، إلا أن نتائج هذا الارتباط لا نهائية وسرمدية.

وأعود إلى التأكيد على الآيات الأولى التي نزلت على النبي محمد ﷺ تقول: ﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، نجد هنا الحقيقة وهي أن الجنين يلتصق برحم أمه وتأتي هنا كلمة "علق" لتوقفنا عند الأبعاد الإلهية الكامنة في لفظ علاقة وهذا المعنى يعطينا تفسيرًا آخر لمدى علاقتنا بالخالق وعلاقتنا بأنفسنا والآخرين. وهناك مثال آخر: فيبدأ القرآن بكلمة "باسم الله" وينتهي بكلمة "الناس"، هنا لا أرى رسالة أكثر وضوحًا من هذا.

من الملاحظ أيضًا أن كلمة Anastasis، والتي تعني "قيامة" في اللغة اليونانية، تفسرها على أنها نهاية الركود الناجم عن الموت. وذلك لأن الحياة مستمرة وفي حركة دائمة، ونجد أيضًا على مستوى التفسير في مفهوم العالم الآخر بعض النظريات القديمة التي ترجع إلى التاريخ القديم، إلى جانب أن هناك كتابات تتحدّث عن الثواب أو العقاب في الأبدية، من بينهم لاهوتيون أرثوذكس. كما نلاحظ في مفهوم Tikkun Olam (إصلاح العالم) في اليهودية، أما في المسيحية فقد تحولت إلى فكرة Apoca-tastasis (إعادة الدمج) أو (الاستعادة إلى الحالة الأصلية أو الأولية)، بينما في الإسلام نجد مفهوم "فناء النار"، فنرى في تلك المفاهيم منظورًا أكثر جرأة وافتراضية نحو استعادة الانسجام البدائي أو حتى نهاية العقاب بشكل قاسٍ احترامًا للقدرة الإلهية على الرحمة. وأعتقد أن ذلك مهمٌ أيضًا للتغلّب والانتصار بشكل نهائي على الشر.

وبالنظر إلى رأي الكثير من المفسرين على أساس الآيات الكثيرة التي نزلت لتوضح هذا، فإن معظم البشر سيكونون ضحية محكومًا عليهم نهائيًا، وذلك بسبب استسلامهم لإغراءات العدو الأول وهو "الشيطان". ■

(*) الجامعة الكاثوليكية بميلانو / إيطاليا.

hiragate.com

محمود حسونة*

أهلا يا مَلَكْ

ربَّاهُ شهرُ الصومِ جاءَ مُحمَّلاً ... من كلِّ أوصافِ الهنا، والفضلُ لكْ
والشوقُ مُدَّ رمضانُ ولّى لم يزل ... بينَ الضلوعِ يَرُومَ دورانَ الفلكْ
ونخافُ لو مرت لياليـنا ولم ... يُكتَبْ لنا نشهد قدومَك يا مَلَكْ
كم خفقةٍ في القلبِ زادت عندما ... دقَّ بأجراسِ الزمانِ تقولُ لكْ:
أقبِل بخيركَ واسقنا من منهلٍ ... كالفجرِ يأتي بالسنا بعد الحلكْ
طالَ الغيابُ وفيك نسبقُ عمرَنا ... حتى نلملم حسننا لنواصلكْ
النور زانَ الكونَ مبتهجًا بما ... أعطاكَ من فيض الإلهِ ليشملكْ
عمت بك البركاتُ كل ربوعنا ... والأهلُ والأحبابُ ترفعُ مشعلكْ
ترقى بك الأرواحُ فوقَ كيانِها ... وتغيبُ في طوعِ العظيمِ وما ملكْ
فيكَ ينابيعُ الهدى قد أرسلت ... في ليلةِ القدرِ تُقوّي مَوصلكْ
يا إخوتى لا تسمحوا برحيلهِ ... إن يبقَ فينا لا ترى أحدًا هلكْ
رمضان تبقى دائمًا في قلبنا ... قد عاشتِ الأيامُ كي تستقبلكْ

(*) شاعر وأديب مصري.

مجلة علمية ثقافية أدبية
تصدر كل شهرين عن دار الانبعاث للنشر والتوزيع

رئيس التحرير
صابر المشرفي

مدير التحرير
إسماعيل قايار

سكرتير التحرير
أحمد السيد

الإخراج الفني
أحمد شحاته

نوع النشر
مجلة دورية تصدر كل شهرين

الطباعة
دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع
٢٤٢٦١

ISSN 2357-0229-92

المنحى العام

- حراء مجلة علمية ثقافية أدبية تعنى بقراءة الكون والإنسان والحياة من منظور قرآني حضاري إنساني.
- تهدف إلى بناء الإنسان المتوازن علميًّا وفكريًّا وسلوكيًّا.
- تسعى إلى أن تكون إضافة نوعية مفيدة في الساحة الثقافية شكلًا ومضمونًا.
- مجلة حراء ملتقى للفكر الإيجابي الحضاري البنّاء.
- تنطلق من رؤية حضارية تستمد طاقتها من ثراء الخبرة التاريخية للأمة الإسلامية والأسرة الإنسانية لمعالجة قضايا الواقع واستشراف آفاق المستقبل.
- تسعى إلى معالجة المعارف الإنسانية من منظور تآلفي بين العقل والقلب، والعلم والإيمان، والفرد والمجتمع، والروح والمادة، والنظري والتطبيقي، والمحلي والعالمي، والأصالة والمعاصرة.
- تحرص على الصحة في المعلومة، والإيجابية في الطرح، والعمق في التحليل، والإثارة في الكتابة، والحرية في التعبير مع احترام المقدسات والخصوصيات، والالتزام بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية المشتركة، والإنصات إلى الآخر، والانفتاح على الحكمة الإنسانية حيثما كانت، والحوار البنّاء الذي يخدم الإنسان ويفيده؛ كما تحرص على الابتعاد عن الإقصاء والاستفزاز والإساءة والعنف والتطرف والسطحية والسلبية فيما تنشر.
- تهدف إلى الجمع بين عمق الفكرة، وجمالية الصياغة، وبساطة العبارة، ووضوح المعنى في أسلوب الكتابة.

معايير النشر

- أن تكون المادة المرسلة جديدة لم يسبق نشرها.
- ألا تتجاوز عدد الكلمات ١٥٠٠ كلمة. وهيئة التحرير لها الحق في التصرف تلخيصًا واختصارًا.
- المادة المرسلة تخضع لتحكيم لجنة علمية استشارية، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء تعديلات على المادة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة تحتفظ بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وطبقًا للتوقيت الذي تراه مناسبًا.
- للمجلة الحق في أن تكتفي بنشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون استئذان كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال رغبته في النشر في المجلة الورقية حصريًّا. علمًا بأن ما ينشر إلكترونيًّا لا يترتب عليه أي مكافأة مالية.
- المجلة تلتزم بإبلاغ الكتاب بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- للمجلة حق إعادة نشر المادة منفصلة أو ضمن مجموعة من المقالات بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى لغة أخرى دون استئذان صاحب المادة.
- المقالات المنشورة في مجلة حراء تعبر عن آراء كتابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- مجلة حراء ترجو كتابها الأكارم أن يرسلوا مع المادة نبذة مختصرة عن سيرتهم الذاتية مع صورة واضحة لهم.

ترسل جميع المشاركات إلى البريد الآتي: hiragate@yahoo.com

EGYPT
٢٢ ج جنوب الأكاديمية، التجمع الخامس، القاهرة الجديدة، القاهرة.
اشتراك وتوزيع هاتف: +201000780841
hiragate@yahoo.com

NIGERIA
Nusret Educational And Cultural Co. Ltd.
Aguiyi Ironsi St. No: 77/B Maitama - Abuja
Phone: +2349030222525
hiragate@yahoo.com

IRAQ
Kani Irfan Publishing English Village N°9 / Erbil
Phone: +964 750 713 8000
hiragate@yahoo.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave.، Clifton، NJ، 07011، USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211
hiragate@yahoo.com

للتواصل مع إدارة المجلة | hiragate@yahoo.com
+20 114 782 4322

- تأريخ مزدوج لشخصية عامة **ذات صيت عالمي**
- قصة أحد أعلام **هذا العصر**
- فإذا كنت تريد أن تتعرف على **كولن والخدمة**

فهذا هو المكان المناسب **لكي تبدأ**

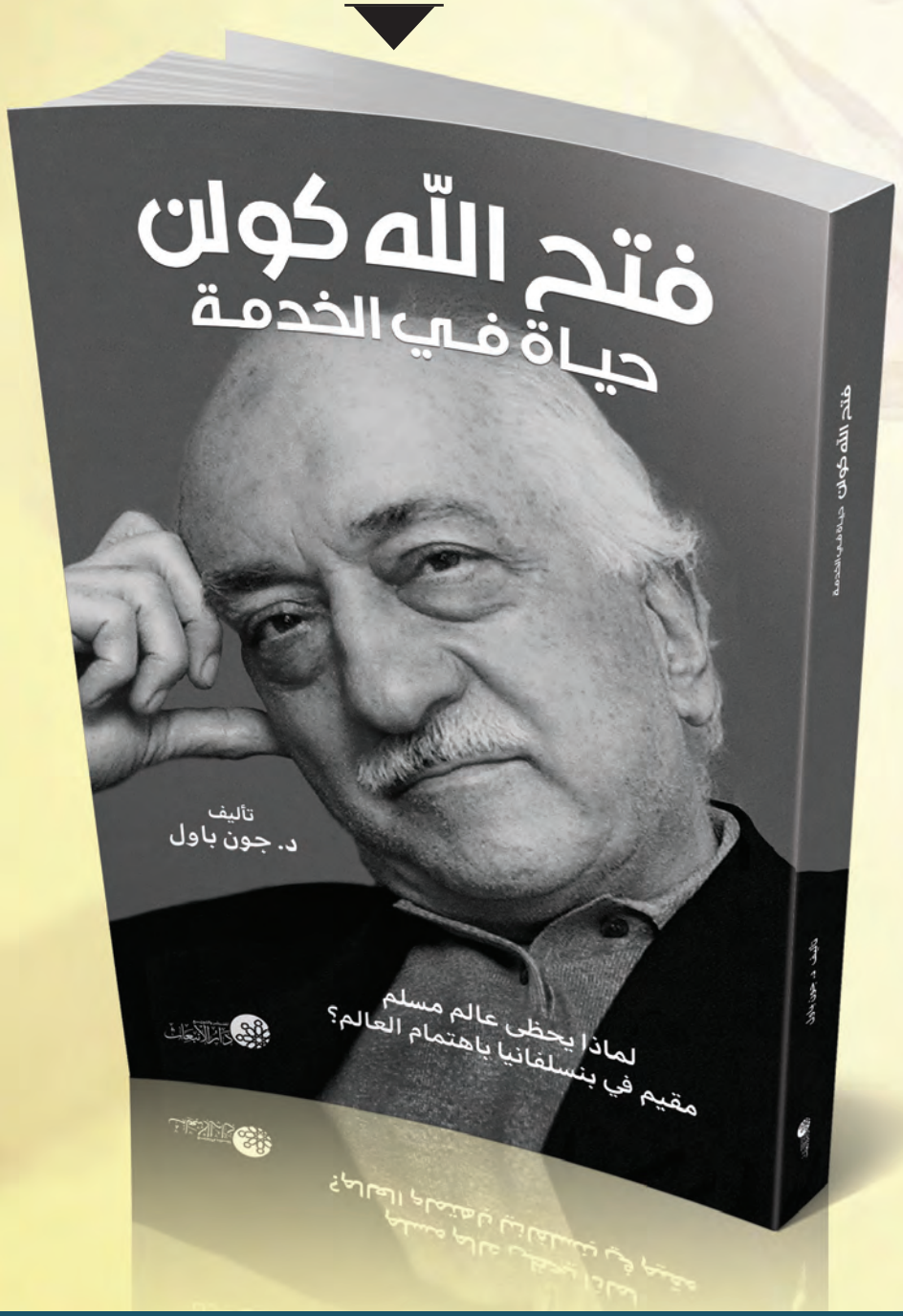

مركز التوزيع: دار الانبعاث | daralinbiath@gmail.com |
00201023201002
www.souq.com
مكتبة الشروق | Shorouk Bookstores | **مكتبة فكرة ستي ستارز**

حراء
مجلة علمية ثقافية أدبية
www.hiragate.com
وا غوثاه!
حِمَمًا صارَتْ هَذِي الأرْضُ
كَجَحيمٍ عَمَّتْ بَلْواهْ!
وضَحَاياهُ مَـدُّوا يَـدهُـم
صاحُوا طُرًّا.. وَا غَوْثاهْ
رَبِّي رَبِّي فـاضَ الْكَـيْـلُ
فَمَتى غَوْثُكَ يـا الله؟!
ISSN 2357-0229
www.hiragate.com